ذكرى المولد النبوي

خلاصة السيرة النبوية

وحقيقة الدعوة الاسلامية

وكلمات الرسول وحكمه

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

obeikan.com

فهرس ذكرى المولد النبوي

صفحة

المقدمة في تاريخ إحداث الاحتفال بالمولد وبيان حكمه هل هو بدعة حسنة أم منكرة

١ فاتحة ذكرى المولد النبوي

٣ قومه ونسبه صلى الله عليه وسلم

٤ وجوه اصطفاء العرب على جميع الامم — خلاصة تاريخية

٩ « « كنانة وقريش وبني هاشم من العرب

١١ سرد نسبه (ص)

١٢ زواج عبد الله بآمنة والحمل بالنبي (ص)

١٣ تاريخ ولادته وخبر رضاعته وحضانته (ص)

١٤ معيشته في الحداثة وكسبه وزواجه (ص) وفيه صفة خديجة رضي الله عنها

١٧ البعثة النبوية وجملة سيرته (ص) قبلها

٢١ تبليغ الدعوة الاسلامية وخلاصتها وفيه بيان ما امتاز به على الاديان

٢٥ آية الله الكبرى — القرآن الحكيم

٣٠ مناهضة الدعوة، وإلجاء الرسول الى الهجرة

٣٦ أخلاقه وسيرته بعد الهجرة مع المؤمنين وحاله مع أهل الكتاب والمشركين

٤٢ الخاتمة . وفيها بيان اكمال الدين وأثر نبوته (ص) وما تركه لأمته

مقدمة لذكرى المولد النبوي

فيها بيانه تاريخ الاحتفال بالمولد وحكمه شرعا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه

أما بعد فان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف قد صار عادة عامة ، وقد اختلف في كونها بدعة حسنة أو بدعة سيئة كما سيأتي، والمشهور أن المحدث لها هو أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين التركماني الجنس الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل[1] أحدثها في أوائل القرن السابع أو أواخر القرن السادس فان السلطان صلاح الدين ولاه على إربل في ذي الحجة سنة ٥٨٦ وتوفي سنة ٦٣٠. وقد كان سخيا متلافا صاحب خيرات كثيرة، وكان ينفق على الاحتفال بالمولد ألوفا كثيرة، ففي تاريخ ابن خلكان انه كان ينصب له مقدار عشرين قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات أو خمس طبقات له قبة منها والباقي للامراء وأعيان دولته، وكانوا يزينون هذه القباب في أول شهر صفر بأنواع الزينة الفاخرة، وكان يكون في كل قبة جوق من الاغاني وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي ، بل كانوا لا يتركون طبقة من الطبقات بغير جوق من تلك الاجواق . وكان الناس يتركون كل عمل في تلك الايام فلا يبقى لهم شغل الا التفرج والدوران على القباب

قال ابن خلكان فاذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الابل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والاغاني والملاهي حتى يأتي بها الى الميدان ثم يشرعون في نحرها وينصبون القدور ويطبخون الالوان المختلفة

فاذا كانت ليلة المولد (١) عمل السماعات بعد أن يصلي المغرب في القلعة ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير وفي جملتها شمعتان أو أربع — أشك في ذلك — من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل . فاذا كانت صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة الى الخانقاه على أيدي الصوفية على يد كل شخص منهم بقجة وهم متتابعون كل منهم وراء الآخر فينزل من ذلك شيء كثير لا أتحقق عدده ،

ثم ذكر عرضه الجند وتوزيعه تلك الخلع بعد ذلك على الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء ومد السماط . وكان قد ذكر قبل ذلك أن الناس كانوا يأتون هذا الموسم في اربل من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم وتلك النواحي فلا يزالون يتواصلون من شهر المحرم الى أوائل شهر ربيع الاول

لخصت هذا من تاريخ ابن خلكان الذي وصف ما رآه بعينيه لان ما يعمل بمصر الآن يشبه ما كان يعمل في اربل الا أنه دونه عظمة ونفقة، فهنا تنصب قباب أو خيام النسيج الجميلة لعزيز مصر ولوزارات حكومته ولبعض الوجهاء في دائرة واسعة ويختلف اليها الناس من أول شهر ربيع الاول يسمعون في بعضها وعظ الوعاظ وذكر أرباب الطرق المعروفة . ويرأس الاحتفال هنا شيخ مشايخ طرق الصوفية ، ويقيم بجانب خيمته مأدبة فاخرة في مساء اليوم الحادي عشر من الشهر يحضرها كبار العلماء وكثير من الوجهاء، ويكون الاحتفال الاكبر في الليلة الثانية عشرة في خيمته فيجتمع فيها من حضر المأدبة ويؤمها الامراء والوزراء حتى اذا ما انتظم جمعهم حضر عزيز مصر بحاشيته وتقرأ بين يديه قصة المولد فيخلع على من يقرأها خلعة سنية ، وتدار بعد قراءتها كؤوس الشراب المحلى وصواني الحلوى الجافة . ثم ينصرف العزيز الى خيمته وهي بجانب قبة شيخ الشيوخ فيمكث فيها ساعة زمانية، يشاهد في أثنائها زينة الالعاب النارية، ثم ينصرف وينصرف الامراء والوزراء، ويظل الناس يطوفون على

(١) هي الليلة التاسعة من ربيع الاول على المختار عند المحدثين او ليلة ١٢ منه على المشهور عند الجمهور وكان مظفر الدين يراعي الخلاف فيجعلها ليلة تسع في سنة وليلة ١٢ في اخرى

تلك الخيام المزينة بالانوار الكهربائية وغير الكهربائية عامة ليلتهم . وفي ضحوة ذلك اليوم يحضر نائب العزيزية شيخ الشيوخ فتعرض عليه مواكب الطرق الصوفية يتقدم كل طريقة شيخها وهم يهللون أو يتلون الاوراد ويقف كل منهم امام شيخ الشيوخ قليلا فيحييه ثم ينصرف

وقد استحسن جماهير المسلمين الاحتفال بالمولد في مشارق الارض ومغاربها ويجتمعون لقراءة قصته في المساجد ومنهم من يجعل لها دعوة خاصة في البيوت ، وهذه لا تتقيد بجعلها في تاريخ الميلاد النبوي ولكن أنكر هذا الاحتفال بعض العلماء وعده بدعة مذمومة لانه عد موسما وشعارا دينيا وعبادة غير مشروعة يظن العوام أنها مشروعة ولا يقترن به من المنكرات الاخرى . وقال بعضهم انه بدعة حسنة لانه عبارة عن الشكر لله تعالى على وجود خاتم أنبيائه وأفضل رسله باظهار السرور في مثل اليوم الذي ولد فيه وبما يكون فيه من الصدقات والاذكار ، وقد ألف الجلال السيوطي رسالة في عده بدعة حسنة في جواب من سأل عن حكمه شرعا وعرفه بقوله : هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن ورواية الاخبار الواردة في مبدإ أمر النبي (ص) وما وقع في مولده من الآيات ثم يمد لهم سماط فيأكلون وينصرفون من غير زيادة على ذلك . وذكر أن الحافظ ابن حجر سئل عنه فأجاب بقوله : أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها فمن جرد في عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة ومن لا فلا

ثم بين ان الحافظ خرجه على حديث الصحيحين في صيام عاشوراء شكرا لله تعالى على انجائه فيه موسى نبيه واغراق فرعون عدوه، قال: فيستفاد منه الشكر لله على ما من به في يوم معين من اسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة ، والشكر لله يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة ، وأي نعمة أعظم من بروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم ؟ وعلى هذا فينبغي ان يتحرى اليوم بعينه حتى يطابق قصة موسى في يوم عاشوراء ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالي بعمل المولد في أي يوم من الشهر، وتوسع قوم فنقلوه الى أي يوم من السنة،

وفيه ما فيه . فهذا ما تعلق بأصل عمله . وأما ما يعمل فيه فينبغي ان يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما تقدم ذكره من الاطعام وانشاد شيء من المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب الى فعل الخير والعمل للآخرة ، واما ما يتبع ذلك من السماع واللهو وغير ذلك فينبغي ان ماكان من ذلك مباحا بحيث يتعين للسرور بذلك اليوم لا بأس بالحاقه به وما كان حراما أو مكروها فيمنع وكذا ماكان خلاف الاولى اه .

وقد يقال لماذا لم يقم بهذا الشكر أحد من الصحابة والتابعين ولا الائمة المجتهدين ولا أهل القرون الثلاثة الذين شهد الشارع لهم بالخيرية ؟ فهل كان صاحب اربل التركماني ومن تبعه أعلم وأهدى منهم وأعظم شكرا لله تعالى؟ ويقال مثل هذا في تخريج الحافظ ابن رجب اياه على تعليل صيام يوم الاثنين بأنه يوم ولد فيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتي مزيد بيان لحجة المخالف

وخرجه السيوطي على أصل آخر استنبطه من تخريج شيخه الحافظ وهو مارواه البيهقي من ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عق عن نفسه بعد النبوة (قال) مع انه قد ورد ان جده عبد المطلب عق عنه والعقيقة لا تعاد مرة ثانية فيحمل ذلك على ان الذي فعله النبي (ص) إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين وتشريع لأمته كما كان يصلي على نفسه لذلك فيستحب لنا أيضا اظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه الآيات واظهار المسرات اه

وهذا التخريج ضعيف من وجوه (أحدها) ان هذا الحديث منكر كما قال راويه البيهقي بل باطل كما قال النووي في شرح المهذب (ثانيها) انه لو صح لكان دليلا على استحباب عق الانسان عن نفسه ولم يقل بهذا أحد (ثالثها) جعل قولهم ان العقيقة لا تعاد حجة على الحديث على تقدير صحته مع كون عبد المطلب عق عنه (ص) (رابعها) انه لو كان تشريعا لعمل به الصحابة وغيرهم وقال به أئمة الفقهاء أو من بلغه منهم (خامسها) ان يوم البعثة كان أولى بهذا الشكر من يوم الولادة لان النعمة والرحمة انما كانت برسالته (ص) بنص قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)

وحجة المنكرين في هذا الباب أن كل بدعة دينية تعد من العبادات المحضة أو

تجعل من شعائر الدين فهي محظورة لأن الله تعالى أكمل الدين وأجمعت الامة على أن أهل الصدر الاول أكمل الناس ايماناواسلاما، وان كل بدعة ليست من هذا القبيل كالمنافع الدنيوية والوسائل التي يقوى بها أمر الدين والدنيا كالمدارس والمستشفيات والملاجئ الخيرية التي يثاب صاحبها بحسن نيته فيها فانها تعد بدعة حسنة، والتحقيق ان هذه لاتسمى بدعة شرعية وانما يطلق عليها اسم البدعة لغة فلا تدخل في عموم قوله صلى الله عليه وآله وسلم من الحديث الصحيح عند مسلم « وشر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » لان موضوع الحديث المحدثات في أمر الدين ، ولكنها تعد من السنن الحسنة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » — الحديث (وهو في صحيح مسلم أيضا) فقد رغب أمته بهذا الحديث في الاختراع النافع لها في دينها ودنياها ولكن ليس لاحد ان يخترع في الدين نفسه شيئا .

ثم ان البدعة الدينية إما ان تكون اختراع عبادة أو شعار ديني لا أصل لهما وإما ان تكون تخصيصا لعبادة مشروعة بزمان معين أو مكان معين أو هيئة معينة لم يخصصها بها الشارع . ومن هذا النوع عد الفقهاء صلاة الرغائب في رجب وصلاة ليلة النصف من شعبان من البدع المذمومة . قال النووي في المنهاج : وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان. وقد سمى الشاطبي هذا النوع بالبدع الاضافية وسمى النوع الاول البدع الحقيقية . وأطال في بيان ذلك في كتابه الاعتصام وفصله تفصيلا

هذا وان ما يعهد من الاحتفال بالمولد ليس عبادة مأثورة عن الشارع يؤتى بها على الوجه المشروع ولا هو عمل دنيوي محض بل يجمعون فيه بين عبادات يأتون بها أو ببعضها على وجه غير مشروع ، وبين لعب ولهو بعضه مباح وبعضه محظور ، وقد كان يكون في احتفال القاهرة خيام يرقص فيها النساء المتهتكات مكشوفات الصدور والبطون كما يحصل دائما في غيره من احتفالات الموالد كالمولد الحسيني والمولد البدوي — وما هو شر من ذلك ، ولكن قد أبطل هذا كله من الاحتفال الذي يكون في القاهرة ولله الحمد

وقد حاول من ذكرنا من العلماء تخريجه على أصل شرعي بابطال ما يكون فيه من اللهو والاقتصار فيه على عمل الخير ، ولولا تخصيص تلك العبادة بالزمان والمكان والصفات المخصوصة التي تشبه بها الشعائر والعبادات المشروعة وتلتبس بها لما احتيج في تخريجه الى ما تكلفوه .

وأما اجتماع الناس في مثل القباب والخيام التي تنصب في العباسية ، وتزين بالمصابيح والانوار الكهربائية ، واظهار البهجة والسرور ، بذكرى مولد ذي الضياء المعنوي والنور ، وذكر اخراج الله الخلق بهديه من الظلمات ، وما آتاه من الهدى والآيات ، فهو في نفسه من المباحات ، المقرونة بالمستحبات والمندوبات ، بشرط ان يخلو من البدع والمنكرات ، وأن لا يعد من الشعائر الدينية ولا من العبادات ، فاذا كان بحيث يظن العامة انه مطلوب شرعا ، حرم فعله قطعا ، بل كان بعض الصحابة يتركون بعض المسنونات ، لئلا تظن العامة أنها من الواجبات ، ومن هنا صرح الشاطبي في الاعتصام[1] بكون اتخاذ يوم ولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عيدا من البدع . وأفتى ابن حجر المكي بأن القيام عند ذكر ولادته صلى الله عليه وسلم بدعة وذكر ان الناس يفعلونه تعظيما وقال « فالعوام معذورون لذلك بخلاف الخواص »[2] وقد علل فتواه بأن القيام يوهم العامة انه مندوب ، ويزاد عليه ان بعضهم يظن انه واجب ، وقد يعلل أيضا بأنه يفعل بهيئة العبادة لما يكون من الصلاة المخصوصة المعينة بالعدد في أثنائه . ولكن لم يأخذ أحد بهذه الفتوى ، فما زال العلماء يقومون كغيرهم ولم نر لهم ردا للفتوى بدليل أرجح من دليلها ، ولعل أكثر العوام يعتقدون وجوب هذا القيام لا لتزام العلماء وسائر الناس له ، ولو فطنوا لترك أحد له لعدوه فاسقا متهاونا بالدين أو كافرا مارقا منه ، ولعلك لو اقترحت على جماعة العلماء الذين يحضرون قراءة قصة المولد تركه في بعض الاوقات ليعلم العامة أنه غير واجب لما تجرؤا على ذلك . والحق ان قصد التعظيم الذي زين للعوام والخواص أمثال هذه البدع . فان من طباع البشر ان يبالغوا في مظاهر تعظيم أئمة الدين أو الدنيا في طور ضعفهم في أمر الدين أو الدنيا . لان هذا التعظيم لا مشقة فيه على

(١) ص ٣٤ من الجزء الأول (٢) ص ٦٠ الفتاوى الحديثية له

النفس فيجعلونه بدلا مما يجب عليهم من الاعمال الشاقة التي يقوم بها أمر الدين أو الدنيا وانما التعظيم الحقيقي بطاعة المعظم والنصح له والقيام بالاعمال التي يقوم بها أمره ويعتز دينه ان كان رسولا، وملكه ان كان ملكا. وقد كان السلف الصالح أشد ممن بعدهم تعظيما للنبي (ص) ثم للخلفاء، وتفانيك ببذل أموالهم وأنفسهم في هذه السبيل. ولكنهم دون أهل هذه القرون التي ضاع فيها الدين في مظاهر التعظيم اللساني. ولا شك ان الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم أحق الخلق بكل تعظيم، وليس من التعظيم الحق له ان نبتدع في دينه بزيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل لاجل تعظيمه به، وحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين فقد كان جل ما أحدث أهل الملل قبلنا من التغيير في دينهم عن حسن نية، وما زالوا يبتدعون بقصد التعظيم وبحسن النية حتى صارت أديانهم غير ماجاءت به رسلهم، ولو تساهل سلفنا الصالح كما تساهلوا وكما تساهل الخلف الذين اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع لضاع أصل ديننا أيضا، ولكن السلف الصالح حفظوا لنا الاصل فالواجب علينا أن نرجع اليه ونعض عليه بالنواجذ، ويجب على العلماء ان يبينوا للناس الاحداث والبدع محذرين منها، كما يجب عليهم ان يبينوا لهم الفرائض والسنن مرغبين فيها، والبيان يحصل بالقول والفعل والاقرار والترك كما ان التشريع حصل بذلك فقد كان (ص) يترك بعض سننه لئلا تفرض

قال الامام الشاطبي في الاعتصام[1]: وقد ثبت في الاصول ان العالم في الناس قائم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، والعلماء ورثة الانبياء فكما ان النبي صلى الله عليه وسلم يدل على الاحكام بقوله وفعله واقراره كذلك وارثه يدل على الاحكام بقوله وفعله واقراره، واعتبر ذلك ببعض ما أحدث في المساجد من الامور المنهي عنها فلم ينكرها العلماء أو عملوا بها فصارت تعد سننا ومشروعات كزيادتهم مع الاذان «أصبح ولله الحمد» الخ وقد أطال في هذه المسألة وبين مفاسد السكوت قبل هذه العبارة وبعدها ولاسيما عمل «الخواص من الناس بالبدعة عموما وخاصة العلماء خصوصا» وذكر في هذا السياق ان علماء الصحابة كانوا يتركون بعض السنن لئلا يظن الناس انها واجبة، ومن ذلك ان أبا بكر وعمر وابن عباس تركوا التضحية في عيد النحر لئلا يظن الناس انها واجبة[2] — على

(١) ص ٢٦٩ ج ٢ (٢) ص ٢٧٦ ج ٢ من الاعتصام

ان بعض الفقهاء بعدهم قال بوجوبها — ونقل عن الامام مالك انه قال في الموطأ في صيام ستة أيام بعد الفطر من رمضان انه لم ير أحدا من أهل العلم والفقه يصومها — قال — ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف وان أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته وان يلحق أهل الجهالة والجفاء برمضان ما ليس منه لو رأوا رخصة من أهل العلم ورأوهم يفعلون ذلك اه وقد كان الامام مالك يعرف الحديث في صيامها وكلامه يدل على ذلك كما قال الشاطبي ولكن سد ذرائع البدع اقتضى ترك هذا المستحب، ومالك من أشد الائمة تشديدا في ذلك . ومما نقله عنه الشاطبي وغيره قوله : « من أحدث في هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الرسالة لان الله يقول (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا اه [1] وقوله عندما سئل عن القراءة في المساجد « لم يكن بالامر القديم وانما هو شيء أحدث ولم يأت آخر هذه الامة بأهدى مما كان عليه أولها ، والقرآن حسن » اه [2]

وجملة القول ان خلط العبادات الدينية باحتفالات الزينة واللهو وجعل ذلك عملا واحدا عن باعث ديني هو الذي يجعل مجموع تلك الاعمال من قبيل الشعائر الدينية ويوهم العوام ان تلك العادات — وكذا العبادات المبتدعة في هيئتها وتوقيتها وعددها — من أمور الدين المشروعة بهذه الصفة ندبا أو وجوبا كما قال الفقيه ابن حجر في مسألة القيام عند ذكر ولادته عليه أفضل الصلاة والسلام وما يكون فيه من الصلاة المخصوصة كما قلنا

وأما قراءة قصة المولد فهي عبارة عن قراءة شيء من الحديث والسيرة النبوية كما قال السيوطي، ولكن كثيرا من الناس كتبوا (موالد) حشوها بالاحاديث الموضوعة والمنكرة وفي بعضها وصف النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يليق كالتغزل بجماله . وكنت منذ سنين أتمنى لو يوجد بين أيدي الناس رسائل في هذا الموضوع يتحرى فيها الصحيح المفيد ، عسى أن يستبدل بها بعض ذلك الضار السيء التأثير ، بيد أني كنت أتحامى أن أكتب في ذلك شيئا باسم المولد لئلا أكون محدثا أو مساعدا أو مقرا لما لم يفعله السلف الصالح

(١) ص ١٤٩ و ١٥٠ ج ٢ (٢) ص ١٦٨ ج ٢ من الاعتصام

ثم كان أن دعاني في غرة ربيع الاول من عام ١٣٣٤ شيخ مشايخ طرق الصوفية بمصر السيد عبد الحميد البكري[1] الى مأدبة أعدها في داره وسماع قصة المولد بعدها فأجبت الدعوة ، وتوسلت بها الى تنفيذ تلك الفكرة ، اذ كنت علمت من أحاديث جرت بيني وبينه انه من محبي الاصلاح لطرق الصوفية وغيرها ، وهنالك كلمته في قصص الموالد المشهورة ووجوب تغييرها فاستحسن ذلك ، فقلت له أرأيت اذا كتبتُ شيئا في هذا الموضوع أتستبدل به ما يقرأ عندك في الاحتفال الرسمي وغيره ؟ قال نعم . فانتهزت هذه الفرصة لبيان الحق في هذه المسألة شكلا وموضوعا ، ثم شرعت في كتابة شيء من ذلك في ساعات المساء من النهار فأتممته في بضعة أيام متفرقة لم تتم أسبوعا ، وكتبت أكثره في دار البكري وكنت أطلعه على ما أكتب فيسر به ، ولكنه جاء طويلا لا يمكن ان يقرأ في الحفلة الرسمية كله ، فاختصرنا منه نسخة قرئت في الحفلة الرسمية ، فكانت موضع اعجاب أهل الفهم والذكاء من الوزراء والكبراء وغيرهم من أهل الرؤية

ثم اطلع على ما كتبت كله بعض أهل العلم ومحبي الاصلاح فرغبوا الي في طبعه ونشره ، ورأوا انه من أحسن ما ينشر في هذا العصر لبيان حقيقة دعوة الاسلام وكليات الدين وخلاصة السيرة النبوية ، فشرعت في طبعه وزدت فيه عند الطبع حديث البعثة وقصة الهجرة وما تلاها من الخاتمة ومسائل أخرى في أثناء الكلام . طبعته في المنار ثم جردته منه وطبعته على حدته ، وحذفت مما طبع في المنار جملة وجيزة اقتبستها من (رسالة التوحيد) وزدت مسائل أخرى قليلة . فكان فوق ما كنت أقدر وأتوخى في هذا المقام ، الذي اعتيد فيه الاختصار ، فجاء كتابا وجيزا حاويا لخلاصة الحقائق المتفرقة في أسفار التاريخ والسيرة النبوية ، وكتب التفسير والحديث والعقائد الاسلامية ، مبينا لكنه الاسلام وحقيقته ، وكليات أحكامه وحكمته ، بعبارة يسهل على الناس فهمها ، ويتيسر لمريد الحفظ حفظها ، وحروف مضبوطة بالحركات ، وأسجاع غير متكلفات ، فهو جدير بأن يُقرأ في البيوت وفي المحافل ، وبأن يلقن لطلاب العلوم الدينية والدنيوية في المدارس ، واذا اكتفى سامعوه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذكره فرادى ولم يرفعوا أصواتهم بصيغة مخصوصة في

(١) بيت البكري من أشهر بيوتات مصر ينتسبون الى الصديق (رض) ويلقبهم الجمهور بلقب السيد كالعلويين

أوقات معينة لايكون في قراءتهم ولاسماعهم له شبهة على الابتداع الحقيقي ولا الاضافي

طريقة اختصاره في القراءة

هذا — وان لمن يقرأه على الناس في وقت ضيق ان يختصر منه بعض الفصول كفصل الهجرة بطوله من منتصف الصفحة ٣٠ الى فصل أخلاقه وسيرته (ص) في الصفحة ٣٦ و يمكن ترك هـذا الفصل أيضا الى الخاتمة في ص ٤١ واذا كان المقروء عليهم من العوام فللقارئ ان يحذف مما يقرأ لهم بحث اصطفاء الله لقومه وقبيله وآل بيته (ص) من أول الصفحة ٤ الى نهاية ص ١٠ لان هذا البحث لا يفهمه حق الفهم ، الا الخواص من أهل العلم ، وما زال كثير من الناس يستشكل ما ورد في الحـديث الصحيح من اصطفاء الله تعالى كنانة وقريشا وبني هاشم ، وحكمة جعل دين العلم والمدنية ، على لسان نبي أمي بعث في أمـة أمية ، ولم أر أحدا سبقني الى بيان مزايا العرب التي أعدهم الله بها لهذه المنقبة العظيمة ، ولله الحمد والمنة (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وآله وصحبه ومن تبعهم في هديهم الى يوم الدين . وكتب هذا في ٥ رمضان سنة ١٣٣٥

محمد رشيد رضا

أغلاط طبعية في الشكل ينبغي تصحيحها بالقلم

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٩	إرَبل	إربِل	١٣	١٨	الثانيةِ عشرة	الثانيةَ عشرة
٦	١٥	وخرافات	وخُرافات	٢٠	٨	الوحيَ	الوحيُ
٧	٣	كان يعدّ	يُعدّ	٢٤	١٦	أقربُ	أقربَ

﴿ استدراك على الحواشي ﴾

شاعر الانصار صاحب الابيات المذكور بعضها في ص ٣٦ هو أبو قيس صرمة ابن أبي أنس كان قد ترهب وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وهمّ بالنصرانية فلما جاء الاسلام اسلم وهو شيخ كبير وله شعر كثير وعاش نحوا من ١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدُكَ اللهمَّ حمدَ الشاكرين، أنْ بعثتَ فينا محمداً خاتمَ النبيينَ والمرسلين، وأرسلتهُ رحمةً عامةً للعالمين، واختصصتَ بمنّتكَ بهِ الأُمّيينَ وسائرَ المؤمنينَ، واستجبتَ به دعوةَ إبراهيم، وحققتَ بهِ بشارةَ عيسى والنبيينَ (وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ: ربّنا تقبّلْ منّا إنّكَ أنتَ السميعُ العليمُ * ربّنا واجعلنا مُسلمينِ لكَ ومنْ ذُرّيتنا أُمّةً مُسلمةً لكَ وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا إنّكَ أنتَ التوّابُ الرحيم * ربّنا وابعثْ فيهِمْ رسولاً منهُمْ يتلو عليهِمْ آياتِكَ ويُعلمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ ويُزكّيهِمْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم * — وإذْ قالَ عيسى بنُ مريمَ يابني إسرائيلَ إنّي رسولُ اللهِ إليكم مُصدّقاً لِما بينَ يديَّ منَ التوراةِ ومُبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ، فلمّا جاءهُمْ بالبيّناتِ قالوا هذا سحرٌ مبينٌ * وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيينَ لَما آتيتُكُمْ منْ كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكُمْ رسولٌ مُصدّقٌ لِما معكُمْ لتؤمنُنّ بهِ ولتنصرُنّهُ، قالَ أأقررتُمْ وأخذتُمْ على ذلكُمْ إصري، قالوا أقررنا، قالَ فاشهدوا وأنا معكُمْ منَ الشاهدينَ * لقدْ منَّ اللهُ على المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهِمْ رسولاً منْ أنفسِهِمْ يتلو عليهِمْ آياتِهِ ويُزكّيهِمْ ويُعلّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا منْ قبلُ لفي ضلالٍ

مُبينٍ * هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فى الأُميينَ رسُولاً منْهُم يتلُو عَليهِمْ آياتِهِ وَيُزَكّيهِم ويُعلّمهُمُ الكتابَ وَٱلحكْمةَ وَإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ * وَآخَرينَ منْهُمْ لَمَّا يَلْحقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزيزُ ٱلحكيمُ * ذٰلكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ ٱلعظيم)

نحمَدُكَ اللّهمّ ونصلّي ونسلمُ على هذا النبيّ الامين، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا الدين ، ومَنْ تَبعهمْ في هُداهم وَهدْيهم الى يوم الدين

*

أما بَعدُ فإنّ الاحتفال بذكرَى المولدِ النّبويّ في شهرِ ربيعٍ الاول، عادةٌ أحدثَها في القرن السابع الملكُ المُظفّرُ أبوسعيد صاحبُ إرْبَل ، من البلاد التابعة الآنَ لِولاية المَوْصل ، ثم انتشرَتْ هذه العادةُ في الأقطار، وقدْ بَذّتْ مِصرُ بها جميعَ الامصار، والفائدةُ التي يَنبغي أنْ تتَوخّى [1] في هذا اليومِ الذي فَضلَ الأيام، هي التّذكيرُ بخُلاصَة تاريخ النبيّ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام، لِيتذكرَ المؤمنونَ مِنّةَ اللهِ عليهمْ بِبعثته ، وَتتغذّى أرْواحُهُم بزيادة الإيمان به وكمال محبته ، ويَحرِصوا على إقامة دِينهِ وإحياء سُنّته . وَها نحنُ أُولاءِ نُشَنّفُ الاسْماعَ بفرائدَ مِنْ نَسبهِ وَحسَبه [2] ، ومَزايا قومه وعَشيرته ، وأخبارِ مَولِدِه وتَرْبيتِه ، وكيفيّةِ مَعيشته في نفسهِ، وَزواجهِ وسيرتهِ مع أهلِه، تمهيداً لبيانِ المقصدِ الأهمّ الأعظم ، وَهوَ نبأُ بعثتهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، مُستمِدّينَ ذلكَ من الكتاب العزيزِ والسُنّة الثابتة

(١) تتوخى تتعمد وتخص بالطلب والقصد (٢) الحسب ما يعد من مفاخر الآباء

عندَ المحدِّثين ، وما تمسُّ الحاجةُ اليهِ مما أثبتَهُ ثقاتُ المؤرِّخين، مُعرِضينَ عن الرِّواياتِ الموضوعات ، والواهياتِ والمنكراتِ ، التي عُنِيَ الكثيرونَ بنقلِها لما فيها من الخوارق والغرائبِ ، مبالغةً فيما أجازَه العلماءُ من قَبول الأخبارِ الضعيفةِ في المناقب ، ولِما يُرجَى من حُسن تأثيرها في قُلوب العوام، معَ الغفلةِ عمَّا يُخشى من ضدِّ ذلك في نابتةِ هذه الأيَّام ، على أنَّ لنا فيما لا يُحصَى منَ الفضائلِ والمناقب المشهورةِ والمتواترة، ما يُغني عن جميعِ الرِّوايات الضعيفة والمنكرة، وبذلكَ يُعرَفُ قدرُ الإصلاحِ العظيمِ ، الذي أرسلَ اللهُ به هذا النبيَّ الكريم ، عليهِ من الله أفضلُ الصلاةِ والتسليم

قومه ونسبه صلى الله عليه وسلم

(إنَّ اللهَ اصطفَى آدمَ ونُوحًا وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمينَ) إذ جعلَ فيهمُ النُّبوَّةَ والهدايةَ للمُتقدِّمينَ والمتأخِّرين، ثمَّ اصطفَى كِنانةَ من آل اسماعيلَ بنِ ابراهيم ، واصطفى قُريشًا من كِنانةَ ، واصطفَى منْ قُريشٍ بني هاشم، واصطفَى سيِّدَ ولدِ آدمَ من بني هاشمٍ ؛ فكانَ آلُ اسماعيلَ افضلَ الاوَّلينَ والآخرين، كما كان بنو إسحاقَ أفضلَ المتوسِّطين ، اذ كانتْ هدايةُ الانبياءِ من بني اسحاقَ وغيرِهم خاصَّة ، وهدايةُ هذا النبيِّ من آل اسماعيلَ عامَّة ، فبهِ أكملَ اللهُ تعالى الدين، وأتمَّ نِعمتَهُ على العالمين ، كما اقتضتْهُ سُنَّتُهُ تعالى في النَّشوء والارتقاء ، التي كانت في البشرِ أظهرَ منها في سائرِ الأحياء .

كيف كان اصطفاء الله تعالى لهذه الأصول من الأمة العربية ، الذي ثبت في صحيح مسلم وغيره من كتب السنة السنية ؟ وبماذا امتاز قوم خاتم الرسل الكرام ، فضلوا به غيرهم من الأقوام ، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام ، الذي اشتمل عليه دين الإسلام ، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام ، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام ؟

الجواب — :

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسعة الحرية الشخصية ، أيام كانت الأمم ترسف (١) في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية ، محظورا عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية ، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية . كما حظرت عليها حرية التصرفات المدنية والمالية

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الاعمال ، أيام كانت الامم مذللة مسخرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال ، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم ، ويصرفونها كما يصرفون السوائم (٢) لارأي لها منهم في سلم ولا حرب ، ولا إرادة لها دونهم في عمل ولا كسب

كانت العرب ممتازة بعزة النفس ، وشدة البأس ، وقوة الأبدان ، وجرأة الجنان ، أيام كانت الامم مؤلفة من رؤساء

---

(١) ترسف تمشي مشية المقيد — يشبه تصرفها في استعباد الرؤساء لها بمشي الاسير في قيوده (٢) السوائم المواشي الراعية

أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤسين أضعفهم البؤس والشظف[١] وسادة أبطرهم بغي الاستبداد، ومسودين أذلهم قهر الاستعباد

كانت العرب أقرب إلى فضيلة المساواة بين الأفراد، من غير شرائع تحترم بالاعتقاد، ولا قوانين تكفلها قوة الأجناد. أيام كانت الامم تنقسم إلى طبقات، يرتفع بعضها على بعض عدة درجات، لا بفضائل ذاتية، من علمية أو عملية، بل بحكم وراثة الخلف الطالحين[٢] للسلف المستكبرين، باستبداد الملك أو تقاليد الدين

كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوذعية، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية، كقرى الضيوف، وإغاثة الملهوف، والنجدة والإباء،[٣] وعلو الهمة والسخاء، والرحمة والإيثار،[٤] وحماية اللاجىء وحرمة الجار، أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والانانية،[٥] والانين من ثقل الضرائب والاتاوى[٦] الاميرية، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية، وفساد الاخلاق قد عم الراعي والرعية

(١) الشظف بفتحتين ضيق المعيشة

(٢) الخلف بسكون اللام الذين يخلفون غيرهم في الشر. والطالحون بالطاء الفاسدون فهو ضد الصالحين

(٣) النجدة مضاء عزم يبعث صاحبه على المضي فيما يعجز عنه غيره. والاباء الترفع عن الخسائس (٤) الايثار تقديمك غيرك على نفسك بما تحتاج اليه مما تملك

(٥) المرهق المحمول عليه في الامر ما لا يطيق. والاثرة بالتحريك تقديم نفسك على غيرك ولو بما هو أولى بهمنك فهي ضد الايثار، والباء للسببية. والانانية المبالغة في حب النفس الحامل على الأثرة، وهو نسبة الى كلمة «أنا»

(٦) الضرائب جمع ضريبة وهي ما يضرب على العبيد ونحوهم من المال يؤدونه أقساطا، ومنها الجزية، وضريبة الارض الخراج. والاتاوى جمع إتاوة وهي الرشوة، وتطلق على الخراج ونحوه

كانت العربُ قد بلغت أَوْجَ الكمال، في فصاحةِ اللسان وبلاغةِ المقال، وكادت تتحدُ لغاتُ قبائلها أولهجاتُها العربية، وتغلبَ المُضَريةُ منها على الحميرية، بما كان لقريش وغيرها من الرحلاتِ التجارية، والأسواقِ الأدبيَّة؛ فاستعدَّت بذلكَ للوَحدةِ القومية، وللتأثُّرِ والتأثير بالبراهين العقلية، والمعاني الخطابية والشعرية، وللتعبير عن جميع العلوم الالهيةِ والشرعية، والفنونِ العقلية والكونيَّة، أيامَ كانت الأمم تنقصمُ عُرَى وَحدتها بالتعصباتِ الدينيةِ والمذهبيَّة، وتتفرَّقُ وشائجها[1] بالعداوات الجنسيَّة، وتتمزَّقُ دُوَلُها بالحروبِ الأجنبيَّة والأهلية.

فتلكَ أُمهاتُ مزايا الامة العربية، التي أعدّها اللهُ تعالى بها للبعثة المحمديّة، والسيادة الدينيّة والمدنيَّة، بعدَ أن طال العهدُ على مَدَنيَّتهم العاديّة، واستعمارِهم للبلادِ الكلدانيَّةِ البابليَّة، والبلادِ الفينيقيَّةِ (السورية) والمصرية، التي تشهدُ لها سيادةُ لغتهم للغاتِ السامية، وبقاياها في اللغة الهيروغليفيَّة[2]، وبعدَ أن غلبتْ عليهمُ الأمّية، وخرافاتُ الوثنية، وعصبيةُ الجاهلية

وأعظمُ مزاياهم أنهم كانوا أسلمَ الناسَ فطرة، على كونِ أُمم الحضارةِ كانت أرقى منهم في كلّ فنٍّ وصناعة. والاصلاحُ الاسلاميُّ مبنيٌّ على

---

(١) الوشيج والوشيجة اشتباك القرابة وتداخل بعضها في بعض وأصله شجر الرماح ونحوه مما يشتبك (٢) أقدم مدنية عرفها التاريخ مدنية الكلدانيين والبابليين في العراق والمصريين في مصر والفينيقيين في سورية وقد ثبت لدى بعض علماء العاديات (الآثار القديمة) ان أهلها كلهم من بلاد العرب. والهيروغليفية المصرية القديمة

تقديمِ إصلاحِ الانفُسِ باستقلالِ العقلِ والارادةِ وتهذيبِ الاخلاق، على إصلاحِ مافي الارضِ من مَعدِنٍ ونباتٍ وحيوان، وبهذا كان الله تعالى كان يُعِدُّ هذه الامةَ للإصلاحِ العظيم، الذي جاءَ به محمدٌ عليه من اللهِ أفضلُ الصلاةِ والتسليم

اصطفاءُ كنانةَ وقريشٍ وبَنِي هاشم

أما اصطفاءُ اللهِ لكِنانةَ الشيخِ الجليل، من سُلالةِ نبيِّهِ الذَّبيحِ إسماعيل، فيفسِّرُهُ ما كانت تحفظهُ العربُ من أخبارِ كرَمِه ونُبلِه، وقد نقلَ الحافظ في شرحِ البخاريَّ أنهم كانوا يحُجُّونَ اليه لِعلمِهِ وفضله، وكان على سُنَّةِ جدِّهِ إبراهيمَ الخليلِ لا يأكلُ وحدَه، ومما يُؤثَرُ عنهُ من الحِكَمِ الجليلة، كما رُوِيَ في السيرة الحلبية: رُبَّ صُورَةٍ تُخالِفُ المُخبَرَةِ، قد غرَّت بجمالِها، واختُبِرَ قُبحُ فِعالِها، فاحذَرِ الصورَ، واطلُبِ الخبَر. فهذا دليلٌ على ماوُصِفَ بهِ من العلمِ والحكمة، وأما حجُّ العربِ اليهِ فهو دليلٌ على أنهُ كان مثابةَ التعارُفِ، ومَعقِدَ رابطةِ الاجتماعِ والتآلُف.

*

وأما اصطفاءُ اللهِ تعالى لقريشٍ الميامينِ الغُرِّ، وهم ذريةُ فِهرِ بن مالكٍ وقيلَ جدِّ النَّضر. فقد كان بما آتاهمُ اللهُ من المناقبِ العِظام، ولا سيَّما بعد سكنى مكةَ وخدمةِ المسجدِ الحرام، إذ كانوا أصرحَ ولدِ اسماعيلَ أنسابا، وأشرفَهم أحسابا، وأعلاهم آدابا، وأفصحَهُم ألسنةً، وهم المُمَهَّدُون لجمعِ الكلمة. — فقد نقل أهلُ السِّيَرِ، أنَّ مالِكَ بنَ النَّضر

كان ملكَ العرَب، وأنّ كعبَ بنَ لُؤَيٍّ كان يجمعُ قومَهُ ويَعِظُهم يومَ الجمُعة، وكانوا يُسمّونهُ يومَ العَرُوبة، وأنهم كانوا يُجِلّونهُ في حياته، ثمّ أرّخوا بمَوْته بَعدَ مماته، وأنّ قُصَيًّا هو الذي جمعَ شَمْلَ قبائلِ قريشٍ بمكة، إذ كان هو الوارثَ لمن كانوا يتولَّوْنها من خُزَاعة [1] وقد تملك عليهم فملّكوه، إلا أنهُ قد أقرَّ للعَرَب ما كانوا عليه، وذلك أنهُ كان يرَاهُ دِيناً في نفسه، لا ينبغي له تغييرُه ولا لغيره من بَعدِه (قال ابن اسحق) وهو الذي أنشأ النَّدْوَة، وجعل بابَها الى الكعبة، وقد أجمعتْ قريشٌ على طاعته وحبه، فكانت اليه الحِجابةُ والسِّقاية والرِّفادةُ والنَّدْوَةُ واللِّواء، ثم وُزِّعت المناصبُ بعده على الزُّعماء [2]

(١) قد كان ذلك بتزوجه لحبّى بنت حليل الذي كان آخر من ولي منهم. قال ابن اسحق: فلما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل، فرأى قصي انه أولى بالكعبة و بأمر مكة من خزاعة و بني بكر. وان قريشا قرعة اسماعيل ابن ابراهيم وصريح ولده، ثم قال بعد بيان ما كان في ذلك من أمره. فولي قصي البيت وأمر مكة. الخ

(٢) كان لقريش من المناصب غير تلك الخمسة، الاشناق والعمارة والسفارة والأعنة والقبة، والأموال المحجرة للمعبودات كالاصنام، والايسار الذي منه الاستقسام بالأزلام، الذي يرجح به بين الاقدام والاحجام. وقد عابهم عليها الاسلام: (فالحجابة) هي السدانة اي خدمة المسجد الحرام. (والسقاية) توزيع الماء المحلى والقرى على جميع الحجاج. (والرفادة) إسعاف الفقراء والمساكين. ولا سيما الحجاج المنقطعين. (والندوة) الشورى لاجالة الرأي في الامور العظام. التي اجتمعوا فيها بعد البعثة للائتمار بالنبي عليه الصلاة والسلام. (واللواء) راية قريش وكانت تسمى العُقاب، (والاشناق) تحمل الديات والمغارم. لمنع انتشار التعادي والتخاصم. (والعمارة) حفظ بناء المسجد الحرام، قيل وحفظه من اللغط وهجر الكلام (والسفارة) المراسلة بين فريقين في شأن من الشؤون العامة، كالقتال أو المفاخرة. (والاعنة) قيادة الفرسان في أيام الطعان أو الرهان، (والقبة) الخيمة الرسمية التي تنصب وقت الحرب. ويجتمع فيها ما يجهز به الجيش

وأفضلُ من ذلك كله ما وُفِّقوا له في حَدَاثة الرّسول. من التَّحالُفِ الذي عُرِفَ بحِلْفِ الفُضول، إذ تعاقدُوا وتعاهدُوا أن لا يجدُوا بمكةَ مَظلوماً إلا قاموا معهُ، وكانوا عَوْناً لهُ على مَن ظَلمهُ، الى إن تُرَدَّ مَظْلَمتُهُ. وفي حديث الزُّبير بن العوّام عند الطبرانيّ، ومثلهُ حديثُ أمِّ هانئٍ في معجمه الأوسطِ كتاريخ البخاريّ، «فَضَّلَ اللهُ قُرَيشاً بسبعِ خِصال: فضَّلهُم بأنهم عَبَدُوا اللهَ عشرَ سنينَ لا يَعبدُ اللهَ الا قُرَشيّ (١) وفضلهم بأنه نَصرَهُم يومَ الفِيل وهم مشركون. وفضلهم بأنه نزَل فيهم سورةً من القرآن لم يدخلْ فيها أحد من العالمين. — وهي لإيلافِ قُرَيش — وفضلهم بأن فيهمُ النبوةَ والخِلافةَ، والحِجابةَ والسقاية»

كان ذلك كلُّهُ من ارْتقاء قريشٍ واستعدادِ العرب للاسلام، ولكنَّ هذه القوى المعنويّةَ كلَّها وُجِّهت لمعاداتهِ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام

*

وأما اصطفاء الله تعالى لِبني هاشمٍ، فقد كان بما امتازوا بهِ من الفضائلِ والمكارمِ، فقد رَوى أبو نُعيم من حديث المستَوْرِد الفِهريّ رضي الله عنهُ «إنَّ فيهم لخِصالاً أربعاً: إنهم أصلحُ الناسِ عندَ فِتنة، وأسرعُهم إقامةً بعد مُصيبة. وأَوْشكُهم كرَّة بعد فَرَّة، وخيرُهم لمسكين ويتيمٍ، وأمنعُهم من ظلمِ المملوك». وكان جدُّهم هاشمٌ صاحبَ إيلافِ

(١) أي لا يعبده ويوحده أحد الا أناس منهم إذ كانوا على ملة ابراهيم وكانت الوثنية قد شملت العرب كلهم كما شملت غيرهم

قُرَيش ؛ الذي أَخذَ لهمُ العهدَ من قيصرِ الروم على حمايتهم في رحلةِ الصَّيف ، ورُوِيَ أنهُ هو الذي سَنَّ الرِّحلتين ، وأخذَ العهودَ بها من الحكومتين ، حكومةِ اليمن العربية ، وحكومة الشامِ الرُّومية ، فاتَّسعتْ بهما معيشةُ قريش ، وأمنوا في تجارتهم من كل خَوْف ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن ، بما عُدَّتْ بهِ التجارة من أشرفِ أعمالِ الإنسان ، وإنما أُطلِقَ لقب هاشم على عمرو بنِ عبدِ مَناف ، لأنهُ أوّلُ من هَشَمَ الثريدَ للمُسْنِتِينَ العِجاف[1] ، وَكانَ يُشبعُ منهُ كلَّ عامٍ أهلَ الموسِم كافَّة ، كما أشبع منهُ قومَهُ في سنةِ القَحطِ وَالمَجاعة ، على أن مائدتهُ كانت مَنصوبةً لا تُرْفعُ في السَّرّاء ولا في الضَّرّاء ، وزادَ عليهِ ولَدُه عبدُ المطَّلبِ فكانَ يُطعمُ الوحشَ وطيرَ السماء ، وكان أوّلَ من تحنثَ بغارِ حراء ، ورُوِيَ أنهُ حرَّم الخمرَ على نفسهِ ، وجعلَ ماءَ زَمزمَ للشُّرب فحَرَّمَ أن يُغتَسلَ به ،

فجملةُ ما امتازَ بهِ آلهُ صلى الله عليهِ وسلم على سائرِ قومهِ الأخلاقُ العليَّة ، والفواضلُ العمليَّة والفضائلُ النَّفسيَّة ، وكانوا أبعدَ من سائرِ قريش عن الكِبرِ والأَثَرة والامور الحربية ، ولذلكَ غُلِبوا على الرِّياسةِ حتَّى بَعدَ الإسلام ، وحِكمةُ ذلك ظاهرةٌ لِأُولِي الأحلام ، فهو أنفى للشُّبه عن رسالتهِ عليهِ أفضلُ الصلاة والسلام

(١) المسنتون اسم فاعل من أسنت القوم أصابتهم السنة والقحط والعجاف جمع أعجف وعجفاء وهم الذين ضعفوا وهزلت أبدانهم ، العبارة مأخوذة من قول ابن الزِّبعرَى في مدح هاشم :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سرد نسبه صلى الله عليه وسلم

بَعْدَ هٰذَا التَّذْكِيرِ بِمَنَاقِبِ قَوْمِهِ ، وَالتَّفْسِيرِ لِاصْطِفَاءِ اللهِ تَعَالَى لِقَبِيلِهِ وَآلِ بَيْتِهِ ، نُشَنِّفُ الْأَسْمَاعَ بِنَسَبِهِ الْمَحْفُوظِ بِالتَّفْصِيلِ، الْمُتَوَاتِرِ اتِّصَالُهُ بِنَبِيِّ اللهِ إِسْمَاعِيل ، فَنَقُول : هُوَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَاسْمُهُ شَيْبَةُ الْحَمْدِ، ابْنِ هَاشِمٍ وَاسْمُهُ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَبُوهُ عَمْرو : ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَاسْمُهُ الْمُغِيرَة ، ابْنِ قُصَيٍّ وَلُقِّبَ بِمُجَمِّعٍ إِذْ جَمَعَ قُرَيْشًا فِي تِلْكَ الْحَظِيرَة ابْنِ حَكِيمٍ الَّذِي لُقِّبَ بِكِلَابٍ وَالْكِلَابُ مَصْدَرٌ كَالْمُكَالَبَة، وَمَعْنَاهُ الْمُجَاهَرَة بِالْعَدَاوَةِ وَالْمُنَاصَبَة، ابْنِ مُرَّةَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَلْدُ الْقَوِيّ ، ابْنِ كَعْبٍ وَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ كَعْبِ الرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ، ابْنِ لُؤَيّ ، وَهُوَ تَصْغِيرُ لِوَاءٍ أَوْ لَأًى أَوْ لَأْيٍ [1] ابْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ وَمَعْنَاهُ الْحَجَرُ الصَّغِير [2] وَهُوَ قُرَيْشٌ عَلَى الْمُعْتَمَدِ عِنْدَ الْجَمَاهِير ، ابْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ وَاسْمُهُ قَيْس ، وَالنَّضْرُ هُوَ الْحَسَنُ الْمُشْرِقُ الْوَجْه، ابْنِ كِنَانَةَ وَمَعْنَاهُ وِعَاءُ السِّهَامِ مِنَ الْجِلْدِ ، ابْنِ خُزَيْمَةَ وَهُوَ تَصْغِيرُ اسْمِ الْمَرَّةِ مِنَ الْخَزْمِ [3] ، ابْنِ مُدْرِكَةَ وَاسْمُهُ عَامِرٌ أَوْ عَمْرو ، ابْنِ إِلْيَاسَ وَهُوَ مُخَفَّفُ الْيَأْس ، ابْنِ مُضَرَ وَهُوَ مَعْدُولٌ عَنْ مَاضِر ، وَمَعْنَاهُ اللَّبَنُ الْأَبْيَضُ أَوِ الْحَامِضُ الْخَاثِر ، ابْنِ نِزَارٍ مِنَ النَّزْرِ

(١) اللواء معروف واللأى الثور الوحشي ويكنى به عن حسن العينين. واللأي البطء
(٢) الفهر الحجر الذي يؤخذ باليد عادة ويدق به الشيء وقيل مطلقا
(٣) الخزم نظم اللآلئ في السلك

ومَعْنَاهُ القَلِيل ، وَلَعَلَّهُ سُمِّيَ بِهِ تَفَاؤُلا بِقِلةِ وُجودِ مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ الْجِيل ، ابْنِ مَعَدٍّ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَعْدِ ، وَهُوَ الْجَذْبُ السَّرِيعُ وَالذَّهابُ فِي الأَرْض ، وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ وَفِي نَصِيحَةِ عُمَرَ لِلْجَيْش ، « تَمَعْدَدُوا » أَيْ تَشَبَّهُوا بِمَعَدٍّ فِي خُشُونَةِ الْعَيْش ، ابْنِ عدْنَان ، وَهُوَ مِنْ عَدَنَ بِمَعْنَى أَقَامَ فِي الْمَكَان

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ « كَانَ عَدْنَانُ وَمَعَدٌّ وَرَبِيعَةُ وَمُضَرُ وَخَزَيْمَةُ وَأَسَدٌ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلا تَذْكُرُوهُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ »(١) وَرَوَى الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ مَرْفُوعًا « لاَ تَسُبُّوا مُضَرَ وَلاَ رَبِيعَةَ فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ »(٢) فَهَذَا مَا كَانَ يَسُرُّهُ الرَّسُولُ مِنْ نَسَبِهِ كَالدُّرِّ النَّظِيمِ ، وَهُوَ وَاسِطَةُ عِقْدِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالتَّسْلِيم ،

نَسَبٌ تَحْسَبُ الْعُلا بِحُلاَهُ ... قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ

حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ ... أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ

زواج عبد الله بآمنة والحمل بالنبي ومولده صلى الله عليه وسلم

انْحَصَرَ نَسْلُ هَاشِمٍ فِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَاهُ ، وَوُلِدَ

---

(١) عزاه الحافظ في فتح الباري الى تخريج أبي جعفر بن حبيب في تاريخه المحبر . قوله وربيعة ومضر أي ابن نزار بن معد ، قوله وأسد هو ابن خزيمة

(٢) قال الحافظ وله شاهد عند ابن حبيب من مرسل سعيد ابن المسيب ، أي ومراسيله أصح المراسيل

لِعَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ أَبُو طَالِبٍ وَٱلْعَبَّاسُ وَحَمْزَةُ وَعَبْدُ ٱللَّهِ . وَقَدْ زَوَّجَ عَبْدُ ٱللَّهِ آمِنَةَ ٱبْنَةَ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ وَزُهْرَةُ أَخُو جَدِّ نَبِيِّ ٱبْنِ حَكِيمِ بْنِ مُرَّةَ ، وَقَدْ بَنَى عَلَيْهَا فِي بَيْتِ أَهْلِهَا وَأَقَامَ مَعَهَا فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ حَمَلَتْ بِٱلنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، وَلَمْ تَجِدْ فِي حَمْلِهِ ثِقَلًا وَلَا وَحَمًا كَمَا هُوَ شَأْنُ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلصَّحِيحَاتِ ٱلْأَجْسَامِ ، وَقَدْ رَوَى ٱلْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ٱلْبَيْهَقِيُّ فِي مَرَاسِيلِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ ، أَنَّ ٱلصَّحَابَةَ سَأَلُوهُ صلى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هٰذَا ٱلشَّأْنِ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ ٱللَّهِ خَبِّرْنَا عَنْ نَفْسِكَ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عِنْدَ ٱبْنِ سَعْدٍ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا : مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ ؟ ، فَقَالَ « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ (١) ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ ٱلشَّامِ » وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ هٰذِهِ رُؤْيَا كَانَتْ فِي ٱلْمَنَامِ ، وَلٰكِنَّهَا رُؤْيَا صَادِقَةٌ لَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَصَحَّحَ ٱبْنُ حِبَّانَ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلنُّورَ تَمَثَّلَ لِعَيْنَيْهَا حِينَ أَخَذَهَا ٱلْمَخَاضُ فَوَضَعَتْهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ ٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ

تاريخ ولادته وخبر رضاعته وحضانته

صلى الله عليه وسلم

وُلِدَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوِيَّ ٱلْخَلْقِ ، جَمِيلَ ٱلصُّورَةِ صَحِيحَ ٱلْجِسْمِ ، وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي عَامِ ٱلْفِيلِ ، فِي ٱللَّيْلَةِ ٱلثَّانِيَةِ عَشْرَةَ أَوْ

(١) أي أنا مصداق دعوته التي حكاها الله عنه في قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية — ومصداق بشرى عيسى برسول يأتي من بعده

التاسعة من شهر ربيع الأول الموافقة للعشرين من شهر إبريل، وكان ذلك العام، هو الحادي والسبعين بعد الخمس مئة من مولد المسيح عليهما الصلاة والسلام، وقد توفي والده وهو حمل، فكفله جده شيبة الحمد، فارضعته أمه ثلاثة أيام، وكذا ثويبة مولاة أبي لهب عدة أيام، وكانت نساء قريش لا يرضعن الأولاد فعهد جده بإرضاعه إلى حليمة السعدية، وجعله في قبيلتها بالبادية لينشأ في العيشة الخلوية، ثم ردته حليمة إلى أمه بعد أربع سنين، فحضنته إلى أن توفيت وله ست سنين، فأصبح ﷺ يتيم الأبوين، فكفله بعدها جده عبد المطلب سنتين، ثم توفي بعد أن أوصى به أبا طالب عمه، فحاطه بعنايته كما يحوط ولده وأهله، إلا أنه كان لفقره يعيش عيشة القشف، فلم يتعود صلى الله عليه وسلم نعيم الترف، وذلك من عنايته تعالى بتربية هذا المصلح العظيم، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم

معيشته في الجزائر وكسبه ونزواته صلى الله عليه وسلم

ولد صلى الله عليه وسلم يتيماً، ونشأ في قومه فقيراً، ومات والده في سن الشباب، ولم يترك له مالاً إلا خمسة جمال وبضع نعاج، وكان قد ألف رعي الغنم مع إخوته في الرضاع، فصار يرعى لأهل

مكَّة ، فيُوَفِّرُ على كافلِهِ أَبِي طالِبٍ بِما يأْخُذُ على ذٰلِكَ من الأُجْرَة ، ثُمَّ سافَرَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طالِبٍ في تِجارَتِهِ إِلَى الشَّام ، وَلَهُ مِنَ العُمُر اثْنَتا عَشْرَةَ سَنَةً وَشَهْرانِ وَعَشْرَةُ أَيَّام ، وَهُنالِكَ رَآهُ بَحِيرَا الرَّاهِبْ ، وَبَشَّرَ بِهِ عَمَّهُ أَبا طالِب ، وَحَذَّرَهُ من اليَهُودِ عليْه ، بَعْدَ أَنْ رَأَى خاتَمَ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْه ، ثُمَّ إِنَّهُ سافَرَ إِلَى الشَّامِ مَرَّةً ثانِيةً ، مُتَّجِرًا بِمالِ خَدِيجَةَ تِجارَةَ المُضارَبة ، فاعْطَتْهُ أَفْضَلَ ما كانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ إِذْ جاءَتْ تِلْكَ التِّجارَةُ بِأَرْباحٍ مُضاعَفَة ، بَلْ جاءَتْ بِسَعادَةِ الدُّنْيا وَالآخِرَة

كانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيّ ، أَعْقَلَ وَأَكْمَلَ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ ، حَتَّى كانَتْ تُدْعَى فِي الجاهِلِيَّة [الطَّاهِرَة] ، لِمالَها من الصِّيانَةِ وَالفَضائِلِ الظَّاهِرَة ، وَلَمَّا حدَّثَها غُلامُها مَيْسَرَةُ بِما رَأَى مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام ، فِي رِحْلَتِهِ مَعَهُ إِلَى الشَّام ، مِنَ الأَخْلاقِ العالِيَة ، وَالفَضائِلِ السَّامِيَة ، وَما قالَهُ بَحِيرَا الرَّاهِبْ ، لِعَمِّهِ أَبِي طالِب ، تَعَلَّقَتْ رَغْبَتُها بِأَنْ تَتَّخِذَهُ بَعْلًا ، بَلْ تَرَقَّتْ أَفْكارُها إِلَى ما هُوَ أَعْلَى (*)

(*) روى الفاكهي في تاريخ مكة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أبي طالب فاستأذنه أن يتوجه الى خديجة ، فأذن له و بعث بعده جارية يقال لها نبعة ، فقال انظري ما تقول له خديجة ، قالت نبعة فرأيت عجبا : ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فاخذت بيده فضمتها الى صدرها ونحرها ، ثم قالت بأبي أنت وأمي والله ما أفعل هذا الشيء ، ولكني أرجو ان تكون أنت النبي الذي ستبعث ، فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي ، وادع الاله الذي يبعثك لي ، =

فَتَمَّ ذٰلِكَ الزَّوَاجُ الْمَيْمُون ، وَكَانَ هو ٱبْنَ خَمْس وَعِشْرِينَ وَهِيَ ابْنَةُ أَرْبَعِين، وَتُوُفِّيَتْ بَعْدَ الْبِعْثَةِ بِعشْرِ سِنِين، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ صلَّى اللهُ عليْه وَسلم عليْها ، وَلاَ أَحَبَّ أَحَدًا مِثْلَها ، وَكَانَ طُولَ عُمُرِه يَذْكُرُهَا، حَتَّى كانَت عَائِشَةُ تَغَارُ مِنْها وَلَمْ تَرَها ، قَالَتْ مِنْ حدِيث لَها : فَذَكَرَها يَوْمًا مِن ٱلْأَيَّام، فأَخَذَتْنِي الْغَيْرَةُ فَقُلْتُ لَهُ عليْه الصَّلاَةُ وَالسَّلام : هَلْ كانتْ إِلاَّ عَجُوزًا قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا ؛ فَغَضِبَ ثُم قَالَ « لاَ وَاللهِ مَا أَبْدَلَنِي خَيْرًا مِنْهَا ، آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاس ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاس ، وَوَاسَتْنِي فِي مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاس ، وَرَزَقَنِي اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ دُونَ غيرِهَا مِنَ النِّسَاء » (١) وَفِي صَحِيحِ مُسلِمٍ عنهَا « إِنَّهَا

= قالت فقال لها « والله لئن كنت أناهو قد اصطنعت عندي ما لاأضيعه أبدا ، وان يكن غيري فان الاله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا » ويؤيد هذا ماوردفي كيفية بدء الوحي في الصحيح ،وهوان خديجة قالت له حين خاف على نفسه عاقبة ما أصابه من الجهد، عند ما ظهر له الملك ، « كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وكذا ماثبت من أنها كانت تعد له الزاد ، لينقطع الى التحنث فى غارحراء، وروى الواقدي بسنده الى نفيسة بنت أمية أخت يعلى قالت: كانت خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال ، ولما تأيمت كان كل شريف من قريش يتمنى ان يتزوجها ، فلما سافر النبي (ص) في تجارتها ورجع بربح وافر رغبت فيه ، فأرسلتني دسيسا اليه ، فقلت له ما يمنعك ان تتزوج ؟ فقال « مافي يدي شيء » فقلت فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ قال : ومن ؟ قالت : خديجة ، فأجاب

(١) وفي رواية اذ حرمني أولاد النساء. رواه ابن عبد البر في الاستيعاب وكذا الدولابي في الذرية الطاهرة من طريق وائل بن داود — وقد وثقه احمد — عن عبد الله البهي — وهو مقبول — عنها. قالت عائشة فقلت في نفسي: لاأذكرها بعدها بسيئة أبدا.

مَا غَارَتْ عَلَى امْرَأَةٍ كَمَا غَارَتْ عَلَى خَدِيجَةَ وَهِيَ لَمْ تَرَهَا ، وَعَلَلَتْ ذَلِكَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ إِيَّاهَا ؛ [1] — فَهَذَا هُوَ الْوَفَاءُ الْكَامِلُ اللَّائِقُ بِذَلِكَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ

البعثة النبوية وجهود سيرته صلى الله عليه وسلم قبلها

كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطًا فِي قَوْمِهِ وَأُمَّتِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَرْقَاهُمْ بَلْ أَرْقَى الْبَشَرِ فِي زَكَاءِ نَفْسِهِ وَسَلَامَةِ فِطْرَتِهِ ، نَشَأَ يَتِيمًا شَرِيفًا ، وَشَبَّ فَقِيرًا عَفِيفًا ، ثُمَّ كَانَ زَوْجًا مُحِبًّا لِزَوْجِهِ مُخْلِصًا لَهَا ، وَلَمْ يَتَوَلَّ هُوَ وَلَا وَالِدُهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ قُرَيْشٍ فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا ، وَلَا كَانَ يَعْبُدُ عِبَادَتَهُمْ ، وَلَا يَحْضُرُ سَامِرَهُمْ وَلَا نَدْوَتَهُمْ ، وَلَمْ يَنْظِمِ الشِّعْرَ كَمَا كَانُوا يَنْظِمُونَ ، وَلَا عُنِيَ بِالْخَطَابَةِ كَمَا كَانُوا يَعْتَنُونَ ، وَلَمْ يُؤْثَرْ عَنْهُ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ يَدُلُّ عَلَى حُبِّ الرِّيَاسَةِ ، أَوِ الْبَحْثِ فِي شُؤُونِ السِّيَاسَةِ ؛ وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ خُرَافَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَضَلَالَاتِ الشِّرْكِ ، وَلَا مِنَ الْمُفَاخَرَاتِ الْكَلَامِيَّةِ وَشُؤُونِ الْغَزْوِ وَالْحَرْبِ ، بَلْ كَانَ يُحِبُّ الْعُزْلَةَ ، وَيَأْلَفُ الْوَحْدَةَ ؛ وَرُوِيَ أَنَّهُ فِي حَدَاثَتِهِ حَضَرَ سَمَرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ،

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر ذلك في ترجمتها من الاصابة وانها قالت . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذبح الشاة يقول « أرسلوا إلى أصدقاء خديجة » فأغضبته يوماً وقلت خديجة ! فقال « إني قد رزقت حبها » وفي رواية عزاها الحافظ في الاصابة الى الصحيح انه قال « إني لأحب حبيبها » ورواية الاستيعاب عنها : وان كان ليذبح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن . والصدائق جمع صديقة

أَلْقَى اللهُ فِيهِمَا عَلَيْهِ النَّوْمَ ؛ وَحُبُّ الْعُزْلَةِ وَالِانْكِمَاشِ ، مَعْرُوفٌ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْتَازُ فِي نَشْأَتِهِ الْأُولَى عَلَى الْأَتْرَابِ ، بِالْتِزَامِ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَعُلُوِّ الْآدَابِ ، فَبِذَلِكَ كَانَ لَهُ فِيهِمُ الْمَقَامُ الْمَكِينُ ، حَتَّى لَقَّبُوهُ بِالْأَمِينِ .

عَلَى هَذِهِ الْحَالِ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ، وَكَمُلَتْ مِنْ جَسَدِهِ السَّلِيمِ وَنَفْسِهِ الزَّكِيَّةِ جَمِيعُ الْقُوَى . — لَا طَمَعَ فِي مَالٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، وَلَا تَطَلُّعَ إِلَى جَاهٍ وَلَا شُهْرَةٍ . وَكَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ [1] وَاضِحَةً ؛ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، [2] وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ ؛ [3] فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ ، [4] ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ ؛ [5] حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ عَلَى هَذَا الشَّأْنِ ، بِنُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ

(١) الفلق بالتحريك يطلق على الصبح وهو من فلق الشيء بمعنى شقه وفرقه فرقين فان ضوء الصبح يشق الظلام اذ يظهر مستطيلا ثم مستطيرا ومنه (فالق الاصباح) وبهذا المعنى أضيف الى الصبح ، والمعنى انه كان يرى الرؤيا فتقع كما رأى اذ تنطبع المعاني في مرآة روحه الصقيلة كما هيه ، فهذا ضرب من الوحي وكانت مدته قبل وحي اليقظة الصريح ستة أشهر من ربيع الاول شهر ولادته الى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (٢) الخلاء بالمد الاختلاء والانفراد

(٣) الغار نقب في الجبل وحراء بالكسر أحد الجبال المحيطة بمكة على يسار الذاهب منها الى منى . والغار في أعاليه مشرف على مكة ، بحيث ترى منه الكعبة ، كما يشرف على ما دونه من تلك البقاع ، فهو حسن الموقع جيد الهواء ، يتسع للمختلي فيه مجال الفكر ، والشعور بعظمة الرب ،

(٤) أصل التحنث توقي الحنث أي الاثم وتجنبه وفسره الزهري في الحديث بالتعبد ، قيل كان يعبد الله على ملة ابراهيم وقيل بالتفكر خاصة ، واختلف في عدد الليالي التي كان يقيمها ويتزود لمثلها (٥) التزود اتخاذ الزاد من طعام وماء

فِي شَهْرِ رَمَضَانْ ؛ بِأَنْ تَمَثَّلَ لَهُ الرُّوحُ الأَمِينُ جِبْرِيلْ، وَلَقَّنَه عَنْ رَبِّهِ أَفْضَلَ التَّنْزِيلْ ؛ قَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » كَرَّرَا ذٰلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتْ ، وَهٰذَا مِنْ أَمْرِ التَّكْوِينِ لا مِن تَكْلِيفِ مَا لا يُطَاقْ ، وَكَانَ الْمَلَكُ بَعْدَ كُلِّ جَوَابٍ يَغُطُّهُ أَيْ يَضُمُّهُ إِلَى صَدْرِهِ وَيَعْصُرُهُ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ الْجَهْدُ مَبْلَغَهُ ، وَحِكْمَةُ ذٰلِكَ أَنْ تَغْلِبَ فِيهِ الرُّوحَانِيَّةُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ ، وَيَسْتَعِدَّ لِتَلَقِّي الآيَاتِ الإِلٰهِيَّةِ ، فَيَكُونَ وَاسِطَةً بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْخَالِقْ، وَمُنْتَهَى الْحَاضِرِ وَمَبْدَأَ الْغَائِبِ، وَلَمَّا أَرْسَلَه فِي الثَّالِثَةِ قَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقْ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقْ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ *) أَيْ كُنْ قَارِئًا بَعْدَ أَنْ كُنْتَ أُمِّيًّا ، بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الإِنْسَانَ النَّاطِقَ مِنْ عَلَقٍ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ، لا بِاسْمِي وَلا بِاسْمِكَ ، وَلا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي وَلا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى جَعْلِكَ قَارِئًا لآيَاتِ رَبِّكَ ، الَّتِي اقْتَضَى جُودُهُ وَكَرَمُهُ أَنْ يَرْسُمَهَا بِالْوَحْيِ فِي لَوْحِ قَلْبِكَ ، وَعَلَى تَعْلِيمِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ، كَمَا عَلَّمَ الإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ وَغَيْرِ الْقَلَمِ مَالَمْ يَكُنْ يَعْلَمْ ، — فَرَجَعَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهٰذِهِ الآيَاتِ إِلَى خَدِيجَةَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، وَقَدِ ارْتَعَدَ بَدَنُهُ وَلٰكِنْ حَفِظَ رَشَادُهُ ، فَقَالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » فَزَمَّلُوهُ ، أَيْ لَفُّوهُ بِالثِّيَابِ وَدَثَّرُوهُ ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ أَخْبَرَ خَدِيجَةَ الْخَبَرْ ، وَقَالَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » أَيِ الْهَلاكَ أَوِ الضَّرَرْ ،

فَقَالَتْ لَهُ : كَلاَّ وَاللهِ مَا يُحْزِنُكَ (١) اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، (٢) وَتَحْمِلُ الْكَلَّ (٣) وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ (٤) ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (٥) . ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ ثَلاَثَ سِنِينَ ، قَوِيَ فِيهَا الاِسْتِعْدَادُ وَاشْتَدَّ الشَّوْقُ وَالْحَنِينُ ، قَالَ « بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ » وَذَكَرَ أَنَّهُ رُعِبَ مِنْهُ أَيْضًا ، وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ دُونَ الرَّعْبَةِ الأُولَى ، فَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَتَزَمَّلَ وَتَدَثَّرَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ ، وَبَلَّغَ صَلَّى اللهُ

---

(١) يحزنك من الحزن وهي رواية أبي ذر ، وعند غيره ما يخزيك من أخزاه بمعنى فضحه وأهانه (٢) أي تحسن للاقارب بما يليق بكل منهم

(٣) الكل بالفتح الثقيل حملا أو عيالا أو طبعاً والمتعب ، أي تحمل أثقال الناس أو تحمل المتعب على ما يركبه من الابل أو الدواب (٤) أي تكسب المحتاج ما هو عادم له (٥) النوائب النوازل والمصائب والحوادث أي تعين الناس في كل امر غير باطل وهذه كلمة جامعة في بيان فضائله « ص » وهو يدل على فضل خديجة وعقلها واعتقادها ان من يلتزم الحق وعمل الخير لا يحزنه الله ولا يخزيه . والحديث في الصحيحين ، وتتمته باختصار قليل : فانطلقت به خديجة حتى أتت وُرقة بن نوفل ابن عمها وكان قد تنصر في الجاهلية ، ويكتب من الانجيل بالعبرانية ، وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت له اسمع من ابن أخيك . فقال وُرقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فاخبره « ص » خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى . ياليتني فيها جذع « اي شاب » ليتني اكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال له رسول الله « ص » او مخرجيّ هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك انصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة ان توفي وفتر الوحي

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْوَةَ رَبِّهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَتَتَابَعَ.[1] فَمَا هٰذَا النَّبَأُ الْعَظِيمُ الَّذِي جَاءَهُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينْ، وَمَا ذٰلِكَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الذِي دَعَا إِلَيْهِ بَعْدَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينْ، فَغَيَّرَ اللهُ بِهِ عَلَى يَدَيْهِ تَارِيخَ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ؟

تبليغ الدعوة الاسلامية وخلاصتها

إِنَّ ذٰلِكَ الْيَتِيمَ الْعَائِلَ فِي حَدَاثَتِهِ، الرَّاعِيَ الشَّرِيفَ التَّاجِرَ الْقَنُوعَ فِي شَبِيبَتِهِ، الزَّوْجَ الْمُخْلِصَ لِزَوْجَتِهِ، الْوَالِدَ الْعَطُوفَ عَلَى بَنَاتِهِ وَصِبْيَتِهِ[2] الْأُمِّيَّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ سِفْرًا، وَلَا كَتَبَ سَطْرًا، وَلَا قَالَ شِعْرًا، وَلَا ارْتَجَلَ نَثْرًا، النَّاشِئَ فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ الْأُمِّيَّةِ، الَّتِي فَرَّقَتْهَا نَزَعَاتُ الْعَصَبِيَّةِ، وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهَا نَزَغَاتُ الْوَثَنِيَّةِ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهَا حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَمْسَتْ عَاصِمَتُهَا الدِّينِيَّةُ الدُّنْيَوِيَّةُ، ذَاتَ حُكُومَةٍ شَبِيهَةٍ بِالْعُرْفِيَّةِ، لَيْسَ لَهَا رَئِيسٌ مَتْبُوعٌ، وَلَا قَانُونٌ مَشْرُوعٌ ؛ قَامَ فِيهَا يَدْعُوهَا إِلَى تَوْحِيدٍ يَجْتَثُّ جَرَاثِيمَ الْوَثَنِيَّةِ، بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ ؛ وَإِلَى اسْتِبْدَالِ الْكِتَابِ وَالْعِلْمِ بِتِلْكَ الْأُمِّيَّةِ، وَاسْتِبْدَالِ الْحِكْمَةِ بِتِلْكَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِلَى تَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ مِنْ تِلْكَ الْخُرَافَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الْوِرَاثِيَّةِ، وَإِلَى اسْتِعْمَالِ عُقُولِهَا وَحَوَاسِّهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ،

(١) التتابع (بالياء قبل العين) التهافت والاسراع في الشر أو التتابع (بالباء الموحدة) فيه (٢) صبيته القاسم وعبدالله والطيب والطاهر وقيل الطيب والطاهر لقبان لعبدالله وهؤلاء من خديجة كبناته الاربع، وابراهيم من مارية القبطية

وَالِانْتِفَاعِ بِجَمِيعِ مَا فِي الْأَكْوَانِ ، لِأَنَّ اللهَ تعالَى سَخَّرَهَا لِلْإِنْسَانِ بَلْ قَامَ يَدْعُوهَا إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ شَأْنًا ، وَأَعَمُّ فَائِدَةً وَنَفْعًا ، — قَامَ يَدْعُوهَا إِلَى كِتَابٍ مُهَيْمِنٍ عَلَى الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَدِينٍ أُنْزِلَ لِإِصْلَاحِ جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ ، وَشَرِيعَةٍ عَادِلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ ، تَسْتَأْصِلُ تِلْكَ الْفَوْضَى الِاجْتِمَاعِيَّةَ ، وَتَكْفُلُ لَهُمُ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، بِإِعْتَاقِهَا الْبَشَرَ مِنْ رِقِّ السَّيْطَرَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَجَعْلِهِمْ أَحْرَارًا مُسْتَقِلِّينَ فِي فَهْمِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ ، وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى الْعِزَّةِ الْإِلٰهِيَّةِ . وَجَعْلِ أَمْرِهِمْ شُورَى بَيْنَهُمْ فِي الْأَحْكَامِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ ، وَجَعْلِ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَحِفْظِ الْمَصَالِحِ أَسَاسًا لِلْأُمُورِ الْأَدَبِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، وَجَعْلِ الْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ ، فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْعَادِيَّةِ ، مِمَّا يَسْتَعِدُّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ ، وَجَعْلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضًا تَقُومُ بِهِ الْأَفْرَادُ وَتَتَعَاوَنُ عَلَيْهِ الْجَمَاعَاتُ ، لِأَنَّهُ سِيَاجُ الْفَضِيلَةِ وَمُقَوِّمُ الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ . وَجَعْلِ الْقِتَالِ ضَرُورَةً تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ، وَيُجْتَهَدُ فِي إِضْعَافِ ضَرَرِهَا وَشَرِّهَا ، فَلَا يُقْتَلُ فِيهَا النِّسَاءُ وَلَا الْأَوْلَادُ ، وَلَا الْأُجَرَاءُ وَلَا الْعُبَّادُ ؛ وَلَا يُمَثَّلُ فِيهَا بِالْقَتْلَى [1] وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى الْجَرْحَى ؛ [2] وَمَتَى رَجَحَتْ كِفَّتُنَا بِالْإِثْخَانِ [3] فِي الْأَعْدَاءِ ، نَكْتَفِي

(١) التمثيل بالقتيل تشويهه بقطع بعض أعضائه كجدع الانف وصلم الاذنين وقلع العينين (٢) التذفيف على الجريح الاجهاز عليه اي إماتته (٣) الاثخان في الاعداء إضعافهم بكثرة من يقتل منهم . ومن رحمة الاسلام وإصلاحه =

بالأسر عن سفك الدماء ، (فإمّا منًّا بعد وإمّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها) ، [١] وتزول الضرورة التي أوقدت نارها ، وإن جنحوا للسلم جنحنا لها ، [٢] لأننا أحقّ بها وأهلها ، — إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح ، وأسباب الفوز والفلاح . ومن أهمّها أحكام الرقّ ، بما رغّب وأوجب فيها من العتق . وأحكام اليتامى والنساء ، في الحقوق والإرث والتصرّف في الأموال ، وحسبك من هذا الإصلاح العظيم ، قوله تعالى (ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم)

قام ينبّئهم بأنه رسول من عند الله إلى جميع الأمم ، من العرب والعجم ، وأنه أوحي إليه هذا القرآن لينذرهم به ومن بلغ ، [٣] ويتلو عليهم قوله تعالى (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون

= ابطال ما كانت الامم تستبيحه من استئصال اعدائها . ولم يكتف بمنع قتل من لا يقاتل منهم حتى امر بان يكف عن قتل المقاتلين أنفسهم اذا ضعفوا وامنا شرهم ، وان نكتفي حينئذ باسرهم ، وخيرنا في الاسرى بين المن عليهم باطلاقهم وفك أسرهم بلا مقابل ، و بين فداء اسرانا عندهم ان كان لنا عندهم اسرى . وذلك قوله تعالى (حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد) الخ

(١) الاوزار جمع وزر وهو الحمل الثقيل ويطلق على الذنب ، والمعنى حتى تنقضي الحرب بوضع المحاربين لا ثقالها من السلاح والذخائر عن انفسهم — وقيل بترك الكفار للعدوان والذنوب الموجبة لها .

(٢) السلم ضد الحرب وكلاهما مؤنث اللفظ

(٣) أي وينذر به كل من بلغه ووصلت اليه دعوته من سائر الامم

لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)؛ وَيُخْبِرُهُمْ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ عَلَيْهِمْ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ دَعْوَتَهُ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَأَنَّ اللهَ سَيَفْتَحُ لَهُمْ مِصْرَ وَالشَّامَ، وَيُعْطِيهِمْ مُلْكَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ هُمُ الْأَئِمَّةَ الْوَارِثِينَ، (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قَامَ ﷺ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْكُبْرَى، وَذَكَّرَ بِهَا قَوْمَهُ فَأَعْرَضَ الْأَكْثَرُونَ عَنِ الذِّكْرَى، وَلَمْ يَعْقِلْ أَذْكَى قُرَيْشٍ وَأَعْقَلُهُمْ لَهَا سَبَبًا إِلَّا الْجُنُونَ، أَوْ نَبْزَ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بِلَقَبِ شَاعِرٍ أَوْ كَاهِنٍ مَفْتُونٍ، إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ، لِمَا هُوَ دُونَهَا بِمَرَاحِلَ، — لَا حَوْلَ لَا قُوَّةَ، لَا مَالَ لَا عَصَبِيَّةَ، لَا سَلِيقَةَ فِي الشِّعْرِ تَجْذِبُ الْقَلْبَ، لَا تَمَرُّنَ عَلَى الْخَطَابَةِ يُؤَثِّرُ فِي اللُّبِّ، كَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طُبِعَ عَلَى الصِّدْقِ، وَعَاشَ طُولَ عُمُرِهِ عِيشَةَ الْجِدِّ، فَكَانَ أَقْرَبُ مَا تُوصَفُ بِهِ تِلْكَ الدَّعْوَةُ إِلَى الظُّنُونِ، أَنْ قَالُوا إِنَّهَا نَزْعَةٌ مِنْ نَزَعَاتِ الْجُنُونِ، وَلَوْلَا مَا أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، وَأَعْظَمُهَا هَذَا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ وَالنُّورُ الْمُبِينُ. وَلَوْلَا تَصْدِيقُ اللهِ

تَعَالَى إِيَّادُ بِالْفِعْلِ، كَمَا صَدَّقَهُ بِذٰلِكَ الْقَوْلِ الْفَصْلِ. لَقَالَ بِقَوْلِهِمْ ذَاكَ فِي كُلِّ حِينٍ، مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَى تِلْكَ الدَّعْوَةِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ، (ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (١) * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

آية الله الكبرى — القرآن الحكيم

أَيَّدَ اللهُ بِالْبُرْهَانِ وَالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ، وَآتَاهُ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَأَمَّا آيَةُ اللهِ الْكُبْرَى عَلَى نُبُوَّتِهِ فَهِيَ الْقُرْآنُ، الْحُجَّةُ الْبَاقِيَةُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، الْمُعْجِزُ لِلْخَلْقِ بِقُوَّةِ هِدَايَتِهِ، وَبِبَلَاغَةِ عِبَارَتِهِ، وَبِأَسَالِيبِ بَيَانِهِ، وَبِصِحَّةِ حُجَّتِهِ وَبُرْهَانِهِ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الْمَاضِيَةِ، وَالْحَاضِرَةِ فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ وَالْآتِيَةِ، (٢) وَبِاشْتِمَالِهِ

(١) أي قسما بجنس القلم الشامل للقلم الالهي الذي يسطر علوم المقادير في لوح الوجود المحفوظ، وعلوم الوحي في قلوب الرسل، والعلوم الكسبية والضرورية في جميع القلوب ولأقلام الخلق التي تحفظ بها علومهم — ما أنت أيها الرسول بنعمة الله عليك بعلوم الوحي بعد الامية بمجنون، فان الجنون يذهب بعلم العلم وهذه النعمة جعلت الامي عليما معلما هاديا مهديا، وان لك على قيامك بهذه النعمة لاجرا غير مقطوع، فان ما يترتب على دعوتك من الخير لا ينقطع، وفيه بشارة بنجاح الدعوة وكان في اول الاسلام. وانك لعلى خلق عظيم ولا خلاق للمجانين من مكارم الاخلاق، واذا كان الأمر كذلك فستبصر و يبصر قومك اي الفريقين المفتون، والضال الجدير بوصف الجنون

(٢) اما الماضية فكاخبار الرسل واقوامهم، وأما الحاضرة الحاصلة في عهد الرسول فكالذي ترى في سورة الفتح وسورة التوبة وأول سورة الروم، واما المستقبلة فكوعده تعالى باظهار الاسلام على الدين كله

عَلَى أَكْمَلِ الْأَدْيَانِ الْإِلٰهِيَّةِ، وَأَعْدَلِ الشَّرَائِعِ الْمَدَنِيَّةِ، الْجَامِعَيْنِ بَيْنَ الْفَضَائِلِ الرُّوحِيَّةِ، وَالْمَصَالِحِ الْجَسَدِيَّةِ، الْفَرْدِيَّةِ مِنْهَا وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، اللَّذَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا النَّوْعُ الْإِنْسَانِيُّ لِلدُّخُولِ فِي سِنِّ الرُّشْدِ، وَكَمَالِ اسْتِقْلَالِ الْعَقْلِ، لِبِنَائِهِمَا عَلَى سُنَنِ الْفِطْرَةِ، وَمُوَافَقَتِهِمَا لِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، وَبِعِصْمَتِهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّعَارُضِ، وَتَنَزُّهِهِ عَنِ الْكَذِبِ وَالتَّنَاقُضِ، وَبِكَوْنِهِ لَا تَمَلُّ تِلَاوَتُهُ، وَلَا تَزُولُ رَوْعَتُهُ، وَلَا تَبْلَى جِدَّتُهُ، وَلَا تَنْتَهِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْفَدُ غَرَائِبُهُ، تَقْرَأُ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، مَا يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّهُ أُنْزِلَ الْآنَ، إِمَّا فِي بَيَانِ حَالِ الشَّيْءِ وَصِفَتِهِ، وَإِمَّا فِي بَيَانِ سَبَبِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَاقْرَأْ فِي صِفَةِ هٰذِهِ الْحَرْبِ، الْمُشْتَعِلَةِ بَيْنَ أَعْظَمِ أُمَمِ الْغَرْبِ، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (١) وَقَوْلَهُ تَعَالَى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢) وَاقْرَأْ فِي بَيَانِ حِكْمَتِهَا الْخَفِيَّةِ أَوِ الْجَلِيَّةِ، وَحَالِ عَوَاصِمِ أُمَمِهَا الْمُتْرَفَةِ الْغَنِيَّةِ وَغَيْرِهَا مُنْذُ اخْتِلَافِهَا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ

(١) تمثل حرب الطيارات والمناطيد والغواصات والالغام وعداوة الدول

(٢) تمثل دخان الغازات السامة الخانقة والمبكية والمعمية التي عرفت في هذه الحرب

بما كانوا يَصْنَعُونَ) أَلاَ تَرَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلآيَاتِ . قَدْ بَيَّنَتْ صُورَةَ هٰذِهِ ٱلْحَرَبِ وَمَعْنَاهَا بِأَخْصَرِ الْعِبَارَاتِ ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتُ وَالْعُلُومُ الْغَيْبِيَّةُ وَالشُّهُودِيَّةُ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ الْمُبِينِ ، مِمَّا ٱخْتَرَعَتْهُ مُخَيِّلَةُ ذٰلِكَ ٱلْأُمِّيِّ النَّاشِيءِ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ ، بَعْدَ عَجْزِهِ عَمَّا دُونَهَا إِلَى مَا بَعْدَ سِنِّ ٱلْأَرْبَعِينَ ؛ كَلاَّ وَإِنَّمَا أَعْرَضَ عَنْهُ الرُّؤَسَاءُ عِنَادًا وَٱسْتِكْبَارًا ، وَالْمَرْءُوسُونَ تَقْلِيدًا لَهُمْ وَٱتِّبَاعًا ،

(حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)[1]

تَحَدَّى ﷺ ٱلْعَرَبَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا وَنَكَلُوا[2] وَلَوِ ٱسْتَطَاعُوا لَكَذَّبُوا قَوْلَهُ لَهُمْ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى (وَلَنْ تَفْعَلُوا) ، وَعَلِمَ الرُّؤَسَاءُ

---

(١) اي قلوبنا في اغطية تمنع وصول دعوتك اليها ، وفي آذاننا ثقل بل صمم فلا نسمع ما تقرأ علينا او تقوله لنا ، ومن بيننا و بينك حجاب من عداوتنا لك فاعمل ما تستطيع لنشر دعوتك ، انا عاملون ما نستطيع من مقاومتك (٢) أي طلب منهم ان يعارضوه بالاتيان بسورة مثل سوره في علومها وهدايتها وفي اسلوبها و بلاغتها ، ليثبتوا زعمهم انه من كلام البشر . واخبرهم بانهم لن يفعلوا ذلك ابد الدهر ، وهو « ص » لم يكن قبله يمتاز فيهم بعلم ولا ببلاغة . فعجزوا ونكصوا عيا وجهلا ، ان اصغر سورة في القرآن الكوثر وفيها خبران من اخبار الغيب : إعطاء النبي الخير الكثير بعد القلة والفقر وكون شانئه ومبغضه هو الأبتر الذي يفقد كل خير ، وكل منهما قد حصل ، فقد اعداؤه الأغنياء كل خير وهلكوا ، واورثه الله بلادهم كلها وورد في سبب نزولها ان بعضهم قال لما مات ولده عبد الله بعد موت القاسم بترمحمد اي صار ابتر لا عقب له ، فكان هو الذي مات ابتر

المستكبرون منهم أن سيجذب العرب به[1] إلى الإيمان، بما له من السلطان على العقل والوجدان، فمنعوه من تلاوته، ومنعوا العرب من سماع دعوته، (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وقد سمعه طاغيتهم الوليد بن المغيرة، فكاد أن يمحو بتأثيره عناده وغروره، فأوقد الطاغوت أبو جهل نار حميته، وحمله على أن يقول فيه ما يشعر بإنكاره وكراهته، كقول بعضهم بغير شعور إنه شعر شاعر، وقول آخرين بغير عقل إنه كهانة كاهن، قال له: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. فلما ألح عليه أبو جهل، قال فدعني حتى أفكر في الأمر، فلما فكر وقدر، قال هذا سحر يؤثر[2]

«١» اي انه يجذب العرب بالقرآن

«٢» قصة الوليد مشهورة رواها الحاكم وصححها والبيهقي في الدلائل بنحو ما ذكرنا، وفيها نزل «ذرني ومن خلقت وحيدا» الآيات من سورة المدثر فتراجع مع تفسيرها. وروي انه راى النبي «ص» يقرأ سورة حم فصلت فاثر في نفسه ولان له. وفي رواية انه قال لبني مخزوم عشيرته: لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن. ان له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر، وان اسفله لمغدق، وانه يعلو وما يعلى. فخافوا ان يسلم فتتبعه قريش، فتداركه أبو جهل واثار حميته حتى تكلف القول بانه سحر لانه يفرق بين الرجل وابيه بعدان قال لهم: تزعمون ان محمدا مجنون فهل رايتموه يخنق؟ وتقولون انه =

كَانَ مَثَلُهُ صلى الله عليه وسلم فِي إِثْبَاتِ مَا جَاءَ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي بَلَدٍ كَثُرَتْ فِيهِ الْأَمْرَاضُ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَى أَهْلِهِ طَبِيبٌ وَلَا عِلَاجٌ، فَادَّعَى أَنَّهُ طَبِيبٌ يُبْرِئُ الْعِلَلَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَثْبَتَ دَعْوَاهُ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، إِذْ جَاءَ بِكِتَابٍ عَالَجَ بِهِ أُولَئِكَ الْمَرْضَى الَّذِينَ أَعْضَلَتْ أَدْوَاؤُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ أَمْرَاضُهُمْ، فَشُفُوا وَعَادَتْ إِلَيْهِمْ صِحَّتُهُمْ، إِلَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دَوَائِهِ، حَتَّى هَلَكَ بِدَائِهِ، بَلِ الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ:

أَلَا إِنَّ مُدَاوَاةَ أَمْرَاضِ الْأُمَمِ الرُّوحِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، أَعَزُّ وَأَعْسَرُ مِنْ مُدَاوَاةِ الْأَمْرَاضِ الْجَسَدِيَّةِ، وَتَتَوَقَّفُ عَلَى عُلُومٍ كَثِيرَةٍ لَا عَلَى عِلْمٍ وَاحِدٍ، يُدْرَسُ الْآنَ مَنْقُولُهَا وَمَعْقُولُهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَدَارِسِ، وَمَا أَكْثَرُ مَنْ دَرَسَهَا فِي كُتُبِهَا، وَتَلَقَّاهَا عَنْ أَسَاتِذَتِهَا، يَقْدِرُ عَلَى إِصْلَاحِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ بِالْعَمَلِ بِهَا، فَمَا الْقَوْلُ فِي أُمِّيٍّ نَشَأَ بَيْنَ أُمِّيِّينَ، قَامَ بِذَلِكَ الْإِصْلَاحِ الَّذِي تَعْجَزُ بِهِ تَارِيخُ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، فِي الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَامْتَدَّ مَعَ لُغَتِهِ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى آخِرِ حُدُودِ أُورُبَّةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ مِنَ الْغَرْبِ،

= كاهن فهل رايتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون انه شاعر فهل رايتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا. ثم قالوا ماهو؟ فقال ماهو الا ساحر. القرآن ووصفه بالحلاوة والطلاوة وصف لعبارته واسلوبه، وما بعده وصف لمعانيه ، شبهه بالشجرة المثمرة النابتة في الأرض الطيبة ذات الماء الغدق الكثير ، ووصفه بانه يعلو كل شيء ولا يعلوه شيء، وبانه يحطم ما تحته اي يكسره ويسحقه ، ولما كان يعلو ولا يعلى كان كل شيء خالفه تحته ، فكل ما خالفه محطوم هالك . ولعل هذا الكلام ابلغ ماقال فصحاء العرب

وَإِلَى حُدُودِ بِلَادِ الصِّينِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ، حَتَّى خَضَعَتْ لَهُ الْأُمَمُ، وَدَانَتْ لِدَوْلَتِهِ الدُّوَلُ، وَكَانَتْ تَتْبَعُهُ فِي كُلِّ فُتُوحِهِ الْحَضَارَةُ وَالْمَدَنِيَّةُ، وَالْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْكَوْنِيَّةُ، عَلَى أَيْدِي تِلْكَ الْأُمَّةِ الْحَدِيثَةِ الْعَهْدِ بِالْأُمِّيَّةِ، الَّتِي عَلَّمَهَا الْقُرْآنُ أَنَّ إِصْلَاحَ الْإِنْسَانِ، يَتْبَعُهُ إِصْلَاحُ الْأَكْوَانِ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا إِلَّا بِوَحْيٍ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، وَتَأْيِيدٍ سَمَاوِيٍّ مِنَ الْإِلٰهِ الْعَزِيزِ الْقَدِيرِ الرَّحِيمِ، اخْتَصَّ بِهِ ذٰلِكَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الْكَرِيمَ، عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ؛

مناهضة الدعوة، والجاء الرسول الى الهجرة

بَدَأَ دَعْوَتَهُ صلى الله عليه وسلم بِإِنْذَارِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ، وَمَنْ فِي مَكَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنَ الْمَوَالِي وَالْوَافِدِينَ، فَلَقِيَ أَشَدَّ الْجُحُودِ وَالْإِيذَاءِ مِنْ قَوْمِهِ، الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ، عَمَلًا بِقَوْلِ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ: خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْعَرَبُ عَلَيْهِ؛ وَكَانُوا يَضْطَهِدُونَ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُ، يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، كَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالضَّرْبِ وَالْكَيِّ بِالنَّارِ، فَمِنْهُمْ مَنْ صَبَرَ حَتَّى عَلَى النِّيرَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُكْرِهَ عَلَى الْكُفْرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ. حَتَّى إِذَا اشْتَدَّتِ الْفِتْنَةُ، أُذِنُوا بِالْهِجْرَةِ سِرًّا إِلَى الْحَبَشَةِ، فَأَكْرَمَ

النجاشي[1] مثواهم، ولم يقبل فيهم وشاية كبراء قريش ولا هداياهم، وكان عاقبة أمرد أن أسلم، وصلى عليه عند موته النبي ﷺ، ثم إن قريشا أخرجوا عمه أبا طالب وآله من مكة، لأنه لم يخل بينهم وبينه، فجمع أبو طالب بني هاشم والمطلب، ودخل بهم ومعهم النبي ﷺ في الشعب،[2] وأجمعت قريش مقاطعتهم، وعدم مصاهرتهم؛ وأن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئا، ولا يقبلوا منهم صلحا، إلا أن يسلموا محمدا للقتل، فمكثوا ثلاث سنين في الشعب، وهم في أشد البلاء والجهد، وكان بعض ما مسهم من الضرر، أن أكلوا ورق الشجر؛ ثم اشتد إيذاء قريش له ولمن آمن به بعد وفاة خديجة وأبي طالب، وقد توفيا في عام واحد،[3] وكان ﷺ يعرض نفسه في كل موسم على القبائل، فيغشاهم في عكاظ ومجنة وذي المجاز[4] وفي المنازل، وكان يقول لهم: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم» ويدعوهم إلى أن يحموه للقيام بهذا الأمر، فلم يحمه من قريش أحد، ولكن آمن به في موسم الحج، ستة نفر من أهل يثرب[5] كلهم من الخزرج، وكانوا يسمعون من اليهود حلفاءهم، إن نبيا من الأنبياء

---

(١) النجاشي ملك الحبشة وكان اسمه أصحمة «٢» الوادي وما انفرج بين جبلين «٣» توفيا بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب سنة عشر من البعثة وثلاث قبل الهجرة، والارجح انها ماتت بعده بثلاثة أيام «٤» مواضع وهي مجامع العرب واسواقها في ايام المواسم «٥» هي المدينة المنورة

سَيَبْعَثُ فِي زَمَانِهِمْ ، ثم آمَنَ بِهِ آخَرونَ مِنْهُمْ فِي مَوْسِمٍ آخَرَ ، وَصَارُوا يَدْعُونَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ﷺ مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ ، ففَشَا الإِسْلَامُ فِيهِمْ ، وَجَاءَ فِي الْمَوْسِمِ الثَّالِثِ اثْنَانِ وَثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً مِنْهُمْ ، فَبَايَعُوهُ عَلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ لِرَبِّهِمْ وَإِلَهِهِمْ ، وَأَنْ يَمْنَعُوهُ — أَيْ يَحْمُوهُ — مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ، فَتَمَهَّدَتْ لَهُ بِذَلِكَ أَسْبَابُ الْهِجْرَةِ ، وَكَانَ قَدْ هَاجَرَ جُمْهُورُ مَنْ آمَنَ بِهِ إِلَى الْحَبَشَةِ ، فَأَمَرَ مَنْ بَقِيَ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مُخْتَفِينَ ، فَكَانَ الْقَادِرُونَ يُهَاجِرُونَ أَرْسَالاً مُتَتَابِعِينَ ، وَقَدْ عَلِمَ أَكَابِرُ قُرَيْشٍ بِالأَمْرِ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ سَيَتْبَعُ أَصْحَابَهُ بِالسِّرِّ ، فَفَزِعُوا إِلَى الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ ، وَبَيْنَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُهَيِّئُ رَاحِلَتَيْنِ وَزَاداً وَدَلِيلاً لِلْهِجْرَةِ مَعَ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ ، كَانَ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ يَأْتَمِرُونَ[1] بِالرَّسُولِ ﷺ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ، فَبَعْضُهُمْ يَرَى نَفْيَهُ وَبَعْضُهُمْ يَرَى حَبْسَهُ وَبَعْضُهُمْ يُرَجِّحُ قَتْلَهُ ، ثُمَّ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ شَابًّا نَهْدًا جَلْدًا ، [2] يُعْطُونَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَيْفًا ، يَضْرِبُونَهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، لِيَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي جَمِيعِ الْقَبَائِلِ ، فَيَرْضَى بِدِيَتِهِ بَنُو هَاشِمٍ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ أُولَئِكَ النَّفَرُ عَلَى بَابِهِ ، أَمَرَ عَلِيًّا بِأَنْ يَنَامَ فِي فِرَاشِهِ وَيَتَدَثَّرَ بِبُرْدِهِ ، وَخَرَجَ ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَلَمْ يَنْظُرْهُ وَلَا شَعَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، بَلْ كَانُوا يَنْظُرُونَ مِنْ فُرُوجِ الْبَابِ ، فَيَرَوْنَ

(١) يتشاورون في الأمر

(٢) النهد الذي ينهداي ينهض لمعالي الامور و يطلق على الاسد. والجلد القوي الصابر

النَّائِمَ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [١])

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ دَارِهِ إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ خَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ [٢] فِيهَا وَاسْتَخْفَيَا فِي الْغَارِ الْمَعْرُوفِ بِغَارِ ثَوْرٍ [٣]؛ وَكَانَا قَدِ اسْتَأْجَرَا دَلِيلًا مَاهِرًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيَرْحَلَ بِهِمَا، وَأَعْطَيَاهُ رَاحِلَتَيْهِمَا وَأَمَّنَاهُ عَلَى سِرِّهِمَا [٤] وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَكَتَمَ أَمْرَهُمَا وَوَافَاهُمَا فِي الْمِيعَادِ، وَلَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِخُرُوجِهِمَا، خَرَجَتْ بِالْقَافَةِ فِي طَلَبِهِمَا. [٥] حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَوْا إِلَى بَابِ الْغَارِ، صَرَفَ اللهُ عَنْهُ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ؛ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ؛ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا» [٦] وَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ جَاءَ الدَّلِيلُ فَرَحَلَ بِهِمَا، وَأَرْدَفَ أَبُو بَكْرٍ مَوْلَاهُ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَهَاجَرَ مَعَهُمَا، وَكَانَتْ نَارُ الطَّلَبِ قَدْ خَمَدَتْ عَنْهُمَا، وَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ

(١) المكر التدبير الخفي الذي يفضي بالمكور به الى ما لا يعلم ولا يحتسب ويكون في الشر غالباً وقد يكون لابطال الشر أو للخير ومنه مكر الله عز وجل. والاثبات الاعتقال والحبس، والاخراج النفي (٢) الخوخة الكوة النافذة والباب الصغير في الباب الكبير (٣) ثور اسم جبل معروف من جبال مكة والغار لا يزال فيه الى اليوم (٤) فيه من العبرة ما كان عند العرب من الامانة والصدق والوفاء

(٥) القافة جمع قائف وهو الذي يعرف الآثار فاذا رأى أثر الاقدام أو الاخفاف أو الحوافر في الارض استدل بها على عددها ووجهة سيرها

(٦) قوله «ص» ان الله معنا تفسير لما قبله أي فهو يؤيدنا ويكف الاذى عنا

لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِمَا دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ حِفْظِ اللهِ وَإِكْرَامِهِ لَهُمَا ،

وَلَمَّا بَلَغَ الْأَنْصَارَ خُرُوجُهُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، كَانُوا يَخْرُجُونَ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ يَنْتَظِرُونَهُ فِي الْحَرَّةِ ، [1] وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدِّيَارِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَغْلِبَهُمُ الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ [2] حَتَّى وَافَاهُمْ بِقُبَاءَ [3] يَوْمَ الِاثْنَيْنِ ثَامِنَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فَتَلَقَّوْهُ بِالْإِكْرَامِ ، وَأَقَامَ فِيهَا مُدَّةَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ نُزُولُهُ فِي بَنِي عَمْرِو ابْنِ عَوْفٍ ، وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدَهَا الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِنْدَ دُخُولِ الشَّمْسِ فِي بُرْجِ الْمِيزَانِ ، وَهُوَ أَوَّلُ الِاعْتِدَالِ الْخَرِيفِيِّ فِي الزَّمَانِ ، فَكَانَ ذَلِكَ رَمْزًا لِمَا فِي شَرِيعَتِهِ مِنَ الِاعْتِدَالِ ، وَكَوْنِهَا آخِرَ الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَبْلُغُ بِهَا الدِّينُ غَايَةَ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، وَقَدْ أَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فَجَمَّعَ بِهِمْ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِي ، ثُمَّ رَكِبَ فَأَخَذُوا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ : هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْمَنَعَةِ وَالسِّلَاحِ [4] ، فَقَالَ « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، وَكُلَّمَا مَرَّتْ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ رَغِبُوا إِلَيْهِ فِي النُّزُولِ

١ الحرة موضع بظاهر المدينة من جهة مكة فيه حجارة سود

(٢) أي عند ما يقرب وقت الظهر ويتقلص ظلال الجدر حتى كأن الشمس تغالب المستظل بها عليها (٣) موضع بظاهر المدينة فيه قرية واصله اسم لبئر كانت هناك فهو مؤنث ممنوع من الصرف ويصرف بمعنى الموضع ، ويقصر أيضا

(٤) الخطام الحبل الذي يوضع في مخطم الراحلة أي أنفها لتقاد به و : هلم الخ حكاية لقولهم أي قائلين هلم أي أقبل وتعال الى قوتي الكثرة والاستعداد

عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» وَمَا زَالَتْ تَمُرُّ بِدَارٍ بَعْدَ دَارٍ، إِلَى أَنْ بَرَكَتْ فِي مَوْضِعِ مَسْجِدِهِ الْيَوْمَ مِنْ دُورِ أَخْوَالِهِ بَنِي النَّجَّارِ،(١) فَبَادَرَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ إِلَى رَحْلِهِ فَأَدْخَلَهُ فِي بَيْتِهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ «الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ»؛ وَأَقَامَ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ حَتَّى بَنَى حُجْرَتَهُ وَمَسْجِدَهُ، وَاسْتَحْضَرَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ أَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ،(٢) وَلَمْ يَفْرَحِ الْأَنْصَارُ بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِقُدُومِهِ ﷺ، وَمِثْلُهُ عَوْدَتُهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ(٣) وَأَيُّ شَرَفٍ وَفَخْرٍ وَسَعَادَةٍ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ، أَعْظَمُ مِنْ هٰذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِي افْتَخَرَ بِهَا شَاعِرُهُمْ بِهٰذِهِ الْأَبْيَاتِ:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيبًا مُوَاتِيَا(٤)

وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ ... فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا(٥)

---

(١) هم قبيلة من الانصار وهم أخواله (ص) من جهة جده عبد المطلب فان أمه سلمى بنت عمرو منهم (٢) أرسل (ص) زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم فاحضرا فاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجه التي تزوجها بعد خديجة وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن. وأما بنته زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج. وقد خرج مع هؤلاء عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان (٣) هو فتح مكة

(٤) ثوى أقام والحجة بالكسر السنة والبضع ما بين ٣ الى ٩ أي أقام ثلاث عشرة سنة بمكة يذكر ويعظ بالدعوة الى الله في أثنائها وانما دعا في عشر منها (٥) المواسم مجامع الحج. فلم ير من يؤويه أي يجعل له مأوى أي منزلا يامن فيه على نفسه ولم ير داعيا الى ذلك أو الى الله بمساعدته ونصره

فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهِ النَّوَى وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيْبَةَ رَاضِيَا[١]
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظَلَامَةَ ظَالِمٍ بَعِيدٍ وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا[٢]
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حِلِّ مَالِنَا وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتَّآسِيَا[٣]
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا[٤]
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ أَصْبَحَ هَادِيَا[٥]

أخلاقه وسيرته بعد الهجرة مع المؤمنين

وحاله مع أهل الكتاب والمشركين

كَانَ ﷺ أَكْرَمَ الْخَلْقِ أَخْلَاقًا، وَأَعْلَاهُمْ فَضَائِلَ وَآدَابًا، امْتَازَ بِذٰلِكَ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ يُدْرَكُ كُنْهُهُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ الْعَلِيُّ الْعَلِيمُ، بِقَوْلِهِ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، كَانَ جَامِعًا بَيْنَ اللُّطْفِ وَالتَّوَاضُعِ وَالدَّمَاثَةِ، وَبَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْوَقَارِ وَالْمَهَابَةِ، مَنْ رَآهُ

---

(١) النوى وجهة المسافر التي ينويها بسفره. وطيبة المدينة. ويروى البيت في سيرة ابن هشام هكذا: فلما أتانا أظهر الله دينه فاصبح مسرورا بطيبة راضيا

(٢) الباغي المعتدي ويروى البيت هكذا
فاصبح لا يخشى من الناس واحدا قريباً ولا يخشى من الناس نائيا

(٣) الوغى الحرب والتآسي مثل التعازي ما يتسلى به المرء عن المكاره

(٤) أي نعادي الذي عاداه من جميع الناس وان كان من قبل حبيباً لنا لا نؤثر عليه أحدا

(٥) يروى هذا البيت بالفاظ أخرى في سيرة ابن هشام وفيها أبيات أخرى ايضا

بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ،[١] وَجَامِعاً بَيْنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحَيَاءِ، وَبَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ وَالْمَضَاءِ، فَكَانَ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى أَثْبَتَ النَّاسِ، وَكَانُوا يَلُوذُونَ بِهِ إِذَا اشْتَدَّ الْبَاسُ[٢]، حَتَّى إِنَّهُ ثَبَتَ وَحْدَهُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ غَيْرَ أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ[٣]، وَإِنَّمَا كَانَ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ دِفَاعاً، وَيُرْشِدُ الْمُقَاتِلِينَ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّثْبِيتِ إِرْشَاداً، وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُحَابِي فِي الْحَقِّ عَشِيرَتَهُ وَلَا أَبْنَاءَ جِنْسِهِ، وَكَانَ عَلَى حِلْمِهِ الْوَاسِعِ، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَكَانَ أَجْوَدَ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، وَالسُّحُبِ الْمُنْهَمِلَةِ، وَكَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ ثَبَاتاً وَصَبْراً، وَأَحْسَنَهُمْ لِلَّهِ وَلِلنَّاسِ شُكْراً،[٤] وَكَانَ

---

(١) البديهة الفجاءة أي من رآه مفاجأة من غير سابق معرفة خافه او وقره واجله لما يتجلى في شمائله من الروعة والهيبة ، ومن خالطه اي عاشره مخالطة معرفة أحبه لحسن خلقه وكمال آدابه وشدة رحمته وعنايته بامر معاشره . وهذا الكلام من وصف علي رضي الله عنه له صلى الله عليه وسلم (٢) البأس بالهمز ويخفف للتناسب وهو الشدة والمكروه والمراد به هنا الحرب ونحوها من المكاره الشديدة (٣) كان أبي من رءوس المشركين وصناديدهم وكان يعلف فرساً له بمكة اسمه العود ويقول اقتل عليه محمدا فبلغ النبي «ص» خبره فقال « بل انا اقتله ان شاء الله » فلما كان يوم احد ونكب المسلمون وانكشفوا عن النبي «ص» اقبل ابي مقنعاً بالحديد لايرى من بدنه شيء وجعل يقول اين هذا الذي يزعم انه نبي فليبرز لي فانه ان كان نبيا قتلني ، فلما دنا من النبي «ص» اخذ النبي حربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها طعنة جاءت في ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة التي على الراس فكر الخبيث منهزما ومات من ذلك الجرح في طريقهم الى مكة قيل بسرف وقيل برابغ (٤) قال «ص» «من لم يشكر الناس لم يشكر الله » رواه احمد والترمذي عن ابي سعيد الخدري

يُحِبُّ الْيُسْرَ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَيَكْرَهُ الْعُسْرَ وَيَنْهَى عَنْهُ (١)، وَيَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا وَجَدَ، لَا يَأْبَى الْمُسْتَلَذَّ مِنْهُ نُسُكًا، وَلَا يَتَحَرَّاهُ تَنَعُّمًا وَتَرَفًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْتَنِي بِأَمْرِ الْمَاءِ (٢)، وَيُحِبُّ الطِّيبَ وَالنِّسَاءَ، وَكَانَ يُكْثِرُ الْوَصِيَّةَ بِهِنَّ وَبِالْيَتَامَى وَالْأَرِقَّاءِ، لِيَمْحُوَ مِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ احْتِقَارَ الضُّعَفَاءِ،

وَكَانَ ﷺ يُرَبِّي الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ، وَبِمَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَالْعِرْفَانِ، فَآخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَقَاسَمُونَ الْمَالَ وَالْعَقَارَ، وَأَلَّفَ اللهُ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَتِهِ تَعَالَى إِخْوَانًا، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَعْدَاءً لَا يَأْلُو أَحَدُهُمَا الْآخَرَ بَغْيًا وَعُدْوَانًا، وَكَانَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ، وَيُسَاوِي بَيْنَهُمْ فِي الْإِقْبَالِ وَالْبِشْرِ، وَيُوَقِّرُ كَبِيرَهُمْ وَيَرْحَمُ صَغِيرَهُمْ، وَيُكَرِّمُ فَقِيرَهُمْ، وَيَعُودُ مَرِيضَهُمْ، وَيُشَيِّعُ مَيِّتَهُمْ، وَيَقْبَلُ هَدِيَّتَهُمْ، وَيُجِيبُ دَعْوَتَهُمْ، وَيَكُونُ مَعَهُمْ كَأَحَدِهِمْ

فَأَمَّا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ كَانُوا فِي تِلْكَ الرِّحَابِ، فَقَدْ وَادَعَهُمْ وَأَقَرَّهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَأَمَّنَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، عَلَى أَنْ لَا يُحَارِبُوهُ، وَلَا يُظَاهِرُوا وَلَا يُوَالُوا (٣) عَدُوَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ لَهُمُ

---

(١) من وصاياه « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » رواه البخاري ومسلم وغيرهما (٢) كان احب الشراب اليه الحلو البارد كما في حديث عائشة في الشمائل وكان يستعذب له الماء من بيوت السقيا كما روى ابو داود والسقيا بالضم عين على بعد بوم من المدينة او اكثر (٣) أي لا يعاونوا ولا يناصروا

النَّصْرَ عَلَى الْمُؤْمِنِين، وَيُنْفِقُونَ مَعَهُمْ مَادَامُوا مُحَارِبِين، وَأَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُم ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَوَالِيهِمْ وَأَنفسُهُم ، وَلَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ نَقَضُوا عَهْدَه ، وَظَاهَرُوا عَلَيْهِ عَدُوَّه ،

وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَاشْتَدَّتْ عَدَاوَتُهُمْ لَه ، وَكَانُوا حَرْبًا لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِه ، فَلَمْ يَشْتَفُوا بِإِخْرَاجِهِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ لِمَوَالِيهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، لِأَجْلِ إِرْجَاعِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامْ، إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الاصنَام، حَتَّى صَارَحُوهُمُ الْبَغْيَ وَالْعُدْوَان ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِ أَمَانٌ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَكَان ، إِلَّا أَنْ يَمْنَعَهُ أَحَدُ الأَقْوَام ، أَوْ يَصُدَّهُمْ عَنْهُ الشَّهْرُ الْحَرَامُ أَوِ الْمَسْجِدُ الْحَرَام ؛ عَلَى أَنَّ قُرَيْشًا صَدَّتْهُمْ عَنِ الْبَيْت، بَعْدَ أَنْ قَلَّدُوا الْهَدْيَ وَأَحْرَمُوا بِالْعُمْرَةِ سَنَةَ سِتٍّ (١) ، حَتَّى صَالَحَهُمْ ﷺ فِي الْحُدَيْبِيَّة (٢) ، — وَالْإِسْلَامُ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَعَةِ وَالْقُوَّة (٣) — ، عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِين ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِين ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْعَام ، وَيُخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ ثَلَاثَةَ أَيَّام ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ أَتَاهُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ وَلَو بِقَصْدِ الْإِسْلَام ،

(١) الاحرام وتقليد الهدي أي ما يهدى الى الحرم من الانعام دليل على عدم ارادة القتال (٢) الحديبية بالتخفيف كدويهية ويشدده أكثر المحدثين بئر سمي باسمها الموضع الذي حولها (وقيل واد هناك) وهو على نحو مرحلة من مكة من أسفلها عن طريق جدة . وكان هناك قرية، قيل هي في الحل وقيل في الحرم وقيل بعضها في الحل و بعضها في الحرم وهو أبعده عن مكة

(٣) كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ١٤٠٠ رجل أو ١٥٠٠

وَلَا يَرُدُّوا عَلَيْهِ مَنْ أَتَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَام ، وَكَانَ ﷺ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَام ، أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَام ، فَظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَة ، وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الِامْتِنَاعُ مِنَ الصُّلْحِ حَتَّى خِيفَتْ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَة ، (١) لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَة ، وَعَجَّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا وَعَدَهُمْ ثُمَّ مِنَ الْمَغَانِمِ الْكَثِيرَة ، (٢) وَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى إِيثَارِهِ ﷺ لِلسَّلَامْ ، وَمَا كَانَتْ حُرُوبُهُ إِلَّا دِفَاعًا وَتَأْمِينًا لِدَعْوَةِ الْإِسْلَامْ ، وَكَانَ أَكْبَرُ فَوَائِدِ ذَلِكَ الصُّلْحِ اخْتِلَاطُ الْمُسْلِمِينَ بِالْمُشْرِكِينَ ، وَإِسْمَاعُهُمُ الْقُرْآنَ وَتَبْلِيغُهُمْ حَقِيقَةَ الدِّينْ ، وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ لِتَبْلِيغِ الْمُلُوكِ الْمُجَاوِرِين ، (٣) فَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِيهِ آمِنِينَ مُقْتَنِعِين ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَة ، مَنْ كَانَ يُخْفِيهِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ خَوْفَ الْفِتْنَة ، وَحَسْبُكَ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ سُورَةَ الْفَتْح ، فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ هَذَا الصُّلْح ، مُبَيِّنَةً مَا فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحْ ، وَمُشْتَمِلَةً عَلَى أَخْبَارِ الْغَيْبِ وَالْوَعْدِ بِالنَّصْرِ وَالْمَغَانِمْ ، فَسَمَّاهُ فَتْحًا مُبِينًا ، وَأَعْقَبَهُ كَمَا وَعَدَ نَصْرًا عَزِيزًا ، إِذْ كَانَ تَمْهِيدًا لِلْفَتْحِ

(١) لما صالح (ص) المشركين أمر المؤمنين بالتحلل من عمرتهم فلم يبادروا الى الامتثال لما عراهم من ذهول الحزن ، فدخل (ص) على أم سلمة وقال لها « هلك المسلمون » وذكر لها ما كان فأشارت عليه بأن يخرج ولا يكلم أحدا حتى ينحر هديه ويحلق رأسه ، فخرج ففعل ذلك فتبعوه فنحروا وصار يحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا من الغم

(٢) عجل لهم فتح خيبر فقد عاد (ص) من الحديبية في ذي الحجة فاقام في المدينة زهاء عشرين ليلة ثم خرج الى خيبر ففتحها في المحرم أول سنة سبع

(٣) ملوك جزيرة العرب والشام ومصر وفارس

مَكَّةَ ، الَّذِي أَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ ، وَازْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ بِذٰلِكَ إِيمَانًا ، وَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ،

وَكَانَ فَتْحُ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ ، وَفِي سَنَةِ عَشْرٍ حَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ ، الَّتِي هَدَمَ فِيهَا قَوَاعِدَ الشِّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَّمَ الْأُلُوفَ أَحْكَامَ الْمَنَاسِكِ (١) ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْهُمُ الْغَائِبَ ، وَأَشْهَدَ اللهَ تَعَالَى وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّهُ بَلَّغَ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَهُ تَبْيِينًا ، وَأَنْزَلَ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي مَسَاءِ عَرَفَةَ (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) وَبِهٰذَا كَانَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ .

الخاتمة

أَقَامَ ﷺ فِي مَكَّةَ بَعْدَ بَدْءِ التَّبْلِيغِ عَشْرَ سِنِينَ ، يَدْعُو إِلَى أُصُولِ الْإِيمَانِ وَكُلِّيَّاتِ الدِّينِ ، مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِتَطْهِيرِهَا مِنْ أَدْرَانِ الرَّذَائِلِ ، وَتَحْلِيَتِهَا بِأَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَعَقَائِلِ الْفَضَائِلِ ، وَاسْتِعْمَالِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى مِنْ بَدَنِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ ، وَسَمَاوِيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ ، فِيمَا تَظْهَرُ بِهِ حِكْمَتُهُ وَتُشَاهِدُ آيَاتُهُ فِي الْخَلْقِ ، وَتَتَّسِعُ بِهَا الْعُلُومُ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الْحَقُّ وَتَكْثُرُ مَوَارِدُ الرِّزْقِ ، صَابِرًا مَعَ السَّابِقِينَ

(١) المناسك أحكام الحج ، وقد اختلف في عدد من حج مع الرسول (ص) حجة الوداع من ٤٠ ألفا الى مئة وعشرين ألفا . وسببه انه خرج من المدينة لجماهير المسلمين فيها وفيما حولها وكان الناس ينضمون اليهم في الطريق عدا من حج من سائر بلاد العرب

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى الِاضْطِهَادِ وَالْأَذَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ، عَلَى أَنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمُلْكَ وَالْمَالَ الدَّثْرَ، عَلَى أَنْ يَتْرُكَ هٰذَا الْأَمْرَ، وَلَوْ كَانَ يَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ لَآثَرَ ذٰلِكَ عَلَى الضَّعْفِ وَالْفَقْرِ، ثُمَّ دَخَلَ الْإِسْلَامُ بِالْهِجْرَةِ فِي عَهْدِ الْحُرِّيَّةِ، وَتَكَوَّنَتْ لَهُ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ، وَجَاءَ الْوَحْيُ فِيهِ مُفَصَّلًا لِمَا أُجْمِلَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَبَيَانِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَفِيهِ فُرِضَتِ الزَّكَاةُ وَالْحَجُّ وَالصِّيَامُ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ فُرِضَتْ بِمَكَّةَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَبُيِّنَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ جَمِيعَ فُرُوعِ الْعِبَادَاتِ، وَكُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ النُّصُوصِ وَالْقَوَاعِدِ لِلسِّيَاسَةِ وَأَنْوَاعِ الْمُعَامَلَاتِ، فَبِذٰلِكَ كُلِّهِ أَكْمَلَ اللّٰهُ الدِّينَ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ تَرَبَّى عَلَى ذٰلِكَ أُلُوفٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَنَشَرُوا هٰذَا الدِّينَ الْقَوِيمَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، فَارَوْا أُمَمَ الْحَضَارَةِ وَالْأَدْيَانِ الْقَدِيمَةِ، مِنَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسِّيرَةِ الْقَوِيمَةِ، مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ بِأَعْيُنِهِمْ، وَلَا رَوَوْا نَظِيرَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ التَّشْرِيعِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، كَمُدَّةِ التَّبْلِيغِ بَعْدَ الْبِعْثَةِ (١) فَبَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ (٢) قَبَضَ اللّٰهُ تَعَالَى إِلَيْهِ نَبِيَّهُ الْمُصْطَفَى، وَرَسُولَهُ الْمُجْتَبَى، وَرَفَعَ رُوحَهُ الطَّاهِرَةَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فَتُوُفِّيَ ﷺ تَارِكًا لِلْأُمَّةِ مَا إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ يَضِلُّوا مِنْ بَعْدِهِ، كِتَابَ اللّٰهِ وَسُنَّتَهُ فِي تَبْيِينِهِ، وَعِتْرَتَهُ الْعَامِلِينَ بِهِمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، (٣)

(١) أي عشر سنين (٢) توفي (ص) يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة احدى عشرة وكذلك كانت ولادته وبعثته وهجرته في يوم الاثنين . وفي ذلك اشارة الى ان الايمان به يلي الايمان بالله تعالى، والشهادتان شاهدتان على ذلك (٣) روى مسلم =

وكَذَا خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُون.[1] وَعُلَمَاءُ أَصْحَابِهِ الْعَامِلُون[2]، مُؤَسِّساً

=في صحيحه من طرق عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله (ص) خطيبا بماء يدعى خُمّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال «أما بعد الا أيها الناس فانما أنا بشر يوشك ان يأتي رسول ربي فاجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به — فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال — وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في اهل بيتي» وفسر زيد أهل بيته بمن حرم عليهم الصدقة قال وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. ويقول آخرون هم علي وذريته من فاطمة عليهم السلام. لعمري انهم كانوا أحفظ الناس لهديه حتى عند ظهور البدع وفتن الدنيا ولا يخلو عصر من طائفة منهم أو أفراد من الهداة المصلحين، وان فتن الكثيرون منهم بغلاة المحبين، فكانت فتنتهم لهم أعم وأدوم من فتنة الأمراء الظالمين، اذ كان من أثرها في ذريتهم أن تركت اكثرهم العلم والاعمال النافعة استغناء عنهما بشرف النسب، غافلين عن قول جدهم علي المرتضى كرم الله وجهه: قيمة كل امرئ ما يحسنه. ولله در بيت الامامة في اليمن منهم فانهم لم يتركوا الاجتهاد في علوم الدين والمحافظة على الامامة الى اليوم. والثقل بالضم و بفتحتين الشيء النفيس المصون وكذا متاع المسافر وحشمه. قال النووي قال العلماء سميا ثقلين لعظمهما وكبير شانهما وقيل لثقل العمل بهما. وروى الترمذي من حديث جابر قال رأيت رسول الله (ص) في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول «اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي — أحدهما أعظم من الآخر — كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» وروى مثله احمد والطبراني من حديث زيد بن ثابت مرفوعا وعلم عليه السيوطي بالصحة. وروي نحوه من حديث أبي سعيد وحذيفة ابن اسيد وروي حديث بعضه عن أبي هريرة وفيه لفظ السنة بدل العترة ومعناه صحيح ولا معارضة بينه و بين الآخر الذي هو أصح منه رواية. و يؤيده حديث مرسل في الموطإ

(١) ورد في مناقب الخلفاء الاربعة أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها وورد لفظ الخلفاء الراشدين في حديث العرباض بن سارية عند أبي داود والترمذي «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» الخ (٢) ورد في فضل أصحابه «ص» أحاديث كثيرة منها في صحيح مسلم انهم أمنة لأمته فاذا ذهبوا أتاهم ما يوعدون. ومعنى أمنة حفظة على الدين، ومنها الحديث الصحيح «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» الخ رواه الشيخان وغيرهما. والقرن العصر طال أو قصر

لَهُمْ أُمَّةً عَظِيمَةً، وَدَوْلَةً عَادِلَةً رَحِيمَةً، وَحُكُومَةً شُورَوِيَّةً حَكِيمَةً، قُيِّدَتْ فِيهَا سُلْطَةُ الْفَرْد، بِالشَّرِيعَةِ الْعَادِلَةِ وَسَيْطَرَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْد،(١) مُبَشِّرًا بِأَنَّ مُلْكَهَا سَيَعُمُّ الشَّرْقَ وَالْغَرْب، وَيَنْتَظِمُ مُلْكَ كِسْرى وَقَيْصَر، وَأَنَّهُ يَظَلُّ عَزِيزًا مَا أَقَامُوا الْحَقَّ وَاعْتَصَمُوا بِالْعَدْل، فَإِذَا وَسَّدُوا الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَلْيَنْتَظِرُوا سَاعَتَهُمُ الْمَضْرُوبَةَ لِفَقْدِه،(٢) وَبِأَنَّهُ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ ظَاهِرَةً عَلَى الْحَقِّ قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ، إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَيَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ(٣)

وَقَدْ تَمَّ كُلُّ مَا بَشَّرَ بِهِ وَأَنْذَر، وَلَا تَزَالُ آيَاتُ نُبُوَّتِهِ تَتَجَدَّدُ وَتَتَكَرَّر، فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ قَوْمِه، وَرَسُولًا عَنْ أُمَّتِه، وَصَلَّى اللهُ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِين، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين.

EGYPTIAN LIBRARY

(١) الاسلام هو الذي شرع للناس شكل الحكومة التي يسمونها فاقامها الراشدون بالعمل ثم هدمت بالتدريج (٢) اشارة الى حديث أبي هريرة عند البخاري « اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظروا الساعة » (٣) اشارة الى ما ورد في الصحيحين والسنن من الاحاديث كحديث ثوبان « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وحديث المغيرة « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » واللفظان هنا لمسلم وليس في البخاري « على الناس » وفي أحاديث أخرى ذكر عصابة تقاتل على الدين أي على حفظه. وذكر النووي ان الطائفة لا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل يجوز اجتماعهم في قطر أو بلد ويجوز تفرقهم، وذكر ان منهم الفقيه والمحدث والمفسر والمقاتل والقائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر والزاهد والعابد. اي لان اقامة الحق تكون بالعلم بالكتاب والسنة وبهما وبالعمل بهما وبالدفاع عنه بالحجة وبالقوة (٤) ذكر المباركة هنا مع الصلاة لموافقة الصلاة الابراهيمية المشروعة في الصلوات، والحمد لله على نعمه التي تتم بها الصالحات